(جائزة الشارقة للإبداع-الدورة ١٩ – المركز الأول)

دوّامات للأحزان

روايـــــــة

حارس كامل يوسف

دار الكنزي للنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد
المدير العام
إيناس الدسوقي
مدير الإنتاج
أحمد عبد الوهاب
مدير النشر
مهند يحى

الكتاب : دوامات للأحزان
تأليف : حارس كامل يوسف
تصنيف الكتاب : رواية
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ١٤٨٠٥ / ٢٠١٩
الترقيم الدولي : 1 - 44 - 6660 - 977 - 978

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com
info@alkanzy.net

جميع الحقوق محفوظة

إهداء

إلى أبي، الذي غاب جسده، ولم يغب طيفه أبدا عني.

.

(حياتي تتأرجح بين حلم جاء خلسة في ليلة عابرة،

وكوابيس تغتال إنسانيتي كل ليلة)

أحداث الرواية وشخوصها وأماكنها من خيال كاتبها، وإن تشابهت وقائعها مع أحداث أو شخوص أو أماكن حقيقية؛ فذلك أنَّ الرواية جزءٌ من الواقع.

ما بين اليقظة والحلم

لا أدري أين أنا. ربما أكون بين الحد الفاصل بين الحلم واليقظة. كل ما أراه حولي هلامي، ألوان باهتة. أحاول أن أتحسس خطوتي فوق أرض تبدو رطبة حتى لا أسقط في أعماقها.

وحيدًا أسير في الظلمة التي لم أعتد السير فيها، وجدت نفسي قريبًا من تخوم غابة كثيفة الأشجار.. أحاول أن أتراجع، فيصدني حائط لم يكن له وجود قبل لحظات. لا أجد مفرًّا من السير بين الأشجار الكثيفة. تدوس أقدامي أغصانًا جافة تتكسر، وحيوانات تجري بين أقدامي.. أستغيث، فلا يخرج صوتي من حنجرتي. وككل شيء يجري مباغتا اختفت الغابة، ورأيت أبي مقيدًا في سلاسل مشدودة إلى جدار. "من جاء بأبي إلى هنا ومن قيده؟!".. لا أدري. كان وحده في المبنى المهجور. تتهادى إلينا أصوات من بعيد كأناس ينفخون في قدور كبيرة مجوَّفة. وثمة صرخات لأناس يتعذبون ويتألمون.

أتلفت يمينًا ويسارًا فلا أرى أحدًا سوى مبنى آخر أظنه حوشًا للبهائم. يرفع أبي رأسه قليلا، فيرى الفضاء الواسع، فيستسلم وتتدلى رأسه

فوق رقبته. وعلى بعد شبح يركض نحوه بسرعة، ولما اقترب الشبح اتضحت ملامحه، وعرفت أنه عمي. لمح أبي عمي راكبًا حصانه، فأنَّ أنينًا مستغيثًا لينقذه. ترجَّل عمي عن حصانه فور أن رآه، وهبّ إليه فزعًا. حاول أن يفك وثاقه، لكنه عجز. كان كلما حاول عادت أشد وأصعب.

كانت السماء ملبدةً بغيوم سوداء تجري وراء بعضها كأنها في معركة شديدة الوطيس، والريح تحوم ثائرة تطوّحِ أعناق النخيل، وتتمايل الأشجار حتى تلامس أطرافها الأرض، ومع هبوب الريح الشديدة وصلت إليَّ أصوات نهيق لحمير، ونباح لكلاب، ولخيل تحمحم كأنهم يخافون جميعا من عدو متربص وحدها تبصره.

دنا عمي من أبي وجاهد حتى فك وثاقه. ولا أعلم كيف تبدَّل الحال، ورأيت عمي موثوقًا وأبي لا يبالي. بغتة خرج من بين الغيم الأسود ثعبان كبير، وانقض من السماء فاتحًا فمه ليبتلع عمي. استنجد عمي بأبي، الذي ولَّى راكضًا.

حاولت أن أصرخ، لكن صوتي كُتم كعادته، ولمَّا ركضتُ وراء أبي وجدته يجرُّ رجليه فوق رمال ساخنة كاللهيب، أمامه الصحراء بحر من رمال صفر لا تنتهي، والعرق كالسيل يتفصَّد منه، بلغ به العطش مداه، ولمح على مقربة شجرة وتحتها بئر.

كان كلما تقدم خطوة ليبلغها ابتعدت عنه خطوتين. ظهر في الأفق البعيد مرة أخرى عمي راكبًا حصانه كأنَّ المشاهد تُعاد من جديد، والرمال وراءه سحابة ترتفع. اقترب من أبي، وشدَّ اللجام، فصرخ الحصان، وحفر بقدميه حفرتين، وتناثرت الرمال. نزل عمي من على الحصان، وحمل أبي ووضعه فوق ظهر الحصان، وقبل أن يركب عمي سمع أصواتًا كالهدير. التفت فوجد جيشًا من ذئاب فاغرة أفواهها عن أنياب كالخناجر تجري نحوهما بشهوة الانتقام والجوع. ضرب عمي الحصان، فركض بعيدا، وظل هو محاصرا بينها، قبل أن ينفجر بحر الدم.

حاولت أن أبكي لمَّا رأيت ذلك. لم يسعفني بكائي. ناديت أمي، فرأيتها تأتي من بعيد تمد يدها لتمسك بي. ظلت تمد يدها، وخلفها أحد الذئاب يركض بأنيابه الحادة كالسكاكين. صرخت لأحذرها، ولكن...

استيقظت في تلك اللحظة عن شهقة عالية، وأنفاس متلاحقة. أمسك برقبتي كأن حبلًا مشدودًا حولها، صرخت:

- أمي. عمي!

***

وقوع البلاء خير من انتظاره

قالت أمـي:

- أنا لحظة عابرة.. نجمة قاربت على الأفول.

كلامها يرنُّ في أذني كرنين الموت. أحاول عبثًا أن أنفضه عني، لكن صداه يزداد اشتعالا، ويتعمق حتى صميم القلب.

***

كنت لا أزال مصدوما والكابوس يتلاعب برأسي بخفة فراشة حينما رن هاتفي. لم أجرؤ على حمله أو حتى مجرد النظر إلى شاشته، ومشاهد الكابوس تعاد ببطء ورتابة أمام عيني كمشاهد فوق شاشة تليفزيون كبرى. كنت أشعر أنني مرهق جدا، وعرق غزير يتفصد من كل خلجة من جسدي، وأنفاسي متلاحقة، وصدري يعلو ويهبط كأني خارج للتو من ماراثون للجري.

لا يغلب يأسًا إلا يأس أشد منه.. وعقد المصائب إذا انفرط، فتوقع في كل لحظة مصيبة جديدة أشد وطأة.

ستبكي، وإن بكيت فلا تستنفد دموعك؛ فبكاؤك اليوم وغدًا وبعد غد سيطول.

لم يكُف الهاتف عن الرنين، أسمع صداه وأنا لا أزال بين النوم والاستفاقة، كنعيق غراب.

ويلي من نعيق الغربان!

وأمام إلحاحه المستميت لم يكن أمامي سوى أن أرد. بضيق أبعدت الفراش، أنظر في الساعة بتكاسل.. تشير إلى الخامسة فجرًا. إذن مَنْ ذلك الذي يصرُّ على أن يزعجني في ذلك الوقت؟ هل قامت القيامة؟

أمدُّ يدي بعيون ناعسة، وجسد متكسر، وأتلقفه مكدرًا لولا خشيتي أن يكون أمرًا مهمًّا لرميته بعيدا. أتطلع في شاشته، فإذا المفاجأة وقعت لما قرأت رقم هاتف عمي. ألم أقل لكم: "لا يغلب يأسًا إلا يأس أشد منه"

هكذا الشكوك القديمة تعود من جديد. لا يبارح عقلك كابوس، إلا وانتظر جنون أحداثه حقيقة أسوأ مما رأيت.

قلت لأمي: هي ليست كوابيس. هي أحداث مسبقة لما سيجري في حياتي. ضحكت، وقالت: كلام لا يصدق. أقسمت لها. ضحكت مرة، أخرى، وزغدتني برفق في صدري، قالت: هل صار ولدي وليًا؟

حكيت لأمي عن الكوابيس التي تطاردني، قلت لها مرعوبًا:

- أنا خائف جدا.. العفاريت يا أمي.

قالت لي بصوت هادئ تحاول أن ترسِّخ اطمئنانًا في صدري:

- لا تخف.. هذه مجرد كوابيس وستذهب لحالها.

قلت لها: لا.. إني أراها أمام عينيَّ ككلاب مسعورة تطاردني.

تنهدتُ، واحتوتني بين ذراعيها، ضمَّتني إلى صدرها، مسَّدت ظهري، وراحت تتمتم بكلمات لا أفهمها. أوصتني أن أستعيذ من الشيطان قبل أن أنام، وأن أقرأ الفاتحة والمعوذتين.

في الصباح، أخذتني أمي من يدي لترقيني، فهي تقول في كل مرة إنني محسود. أشعلت النيران في الفحم داخل إناء كبير مصنوع من الحديد يسمى(قيروانة)، وانتظرت حتى صار جمرا، ثم رمت فيه البخور والملح، الذي أصدر طقطقة شديدة، وارتفعت الشرارات عاليا، وخفت أن

تمسك إحداها بجلبابي، لكن أمي طمأنتني وفردت جلبابي، تمتمت بكلمات حفظتها من كثرة تكرارها:

(رقيتك[1] بالملح سبع مرات.. رقيتك واسترقيتك

الأولى بسم الله.. والثانية بسم الله

والثالثة رقوة محمد بن عبدالله

الله أكبر.. الله أكبر.. اللهم صلي على النبي

سوقت عليك أبوبكر الصديق.. النفس تطلع منك والضيق

من عضمه ما تكسري ومن جسمه ما تنسري

عين الراجل أحدَ من المناجل

عين البنيه أحدَ من السفيه(السيف)

عين المرة أشدَ من الشرشرة).

تقول، وأنا أسمع كلامها كلحن ينغِّم في أذني. تطلب مني مرة أخرى أن أعبر فوق الفحم المتصاعد منه الدخان المختلط برائحة البخور

[1] **رقية تقال في أرياف وصعيد مصر، وذلك للشخص المحسود.**

وطقطقة الملح سبع مرات. أعبرها وإحساس يداخلني يشعرني بالراحة والطمأنينة.

سمعت أمي تبكي وتتمتم بضيق:

"لا يشاهد ابني أبدًا في حياته أفلام رعب، أو يسمع لقصص مخيفة، فمن أين تأتيه تلك الكوابيس؟"

لكنها سرعان ما خفضت رأسها حزنًا، وقالت بنبرة ألم:

- ما عاشه ويعيشه هو أكبر كابوس!

ولم تصدق أمي أن كوابيسي أحداث تجري في حياتي، إلا لما جئتها في تلك الليلة صارخًا، مبلولة ثيابي. ارتميت في حجرها، وقلت لها بأنفاس لاهثة، خرجت معها الكلمات بصعوبة:

- رأيت خالي تطارده الكلاب المذعورة.

حاولت أمي أن تهدئ من روعي، واصلت كلامي، قلت بذعر وكفي فوق عيني:

- رأيته يسقط في البئر.

ولم يمض يومان حتى وجدوه مقتولًا، حينها اقتنعت أن كوابيسي ما هي إلا إشارات لحقيقة واقعة بين لحظة وأخرى.

ومنذ ذلك اليوم لم تذهب الكوابيس عن رأسي. أخذت تطاردني في كل مكان، أرى أبطالها يمرُّون أمامي كأناس من لحم ودم، أبصر أشباحها المرعبين كأنهم حقيقة أمام عينيَّ أتوجس منهم خيفة أن يغتالوا كل اللحظات السعيدة في حياتي.

قلت بقلق، وأنا أهمّ بأن أستمع لعمي:

"أي مصيبة ستبشرني بها يا عمي؟!"

أعتدل في جلستي كالملسوع، ودون انتظار أرد عليه. لم يمهلني أن ألقي عليه السلام، عاجلني بصوت مشروخ:

- احضر فورًا.. ولو وجدت طائرة احجز فيها.

أي ريح صرصر عاتية هبت؟ وأي جنون للحمقى ذلك الذي أنا فيه؟ لماذا يا عمِّي؟ لم يمهلني أن أقولها. أغلق الهاتف في وجهي، أو كأن الهاتف نفسه أغلق من تلقاء نفسه.

ها هي الدائرة تضيق، وأنت في مرمى هواجسك تدور كفراشة تدور حول اللهب لا تحسب أن نيرانها حارقة ستقتلها بعد قليل.

لن تفلح. ستبقى تدور وتدور. ستحوم مثلها لا تفكر. إنه الموت ولا ريب. قالوا قديما: المنحوس منحوس ولو امتلك كنوز قارون.. حتى كنوز قارون هي نيران تلسعني.

يخشى عمي أن يخبرني بالمصيبة. ألا يعرف أن وقوع البلاء أهون من انتظاره. ولكن ربما أن تعيش على أمل أفضل أن تلتهمك نيران المصيبة. ولكن هل كل ذلك سيغير من المحتوم في شيء؟

وليبقى الأهم أي مصيبة تلك التي تنتظرني؟ هل هو أبي؟ هل أحد إخوتي أو أخواتي؟ لا! فلتنفض ذلك كله عن رأسك. لن يكون عمي مهموما مثلما أحسست من صوته إن لم تكن أمي.

كانت تلك الكلمة وحدها كافية لأن أهب تاركا السرير والحجرة كمن يفر من الموت. وكالمجنون رحت أتحرك في الشقة، أكلم نفسي: أمي. أمي.

نعم! لن يطلب مني عمي أن أسرع بالذهاب إلى النجع لو لم تكن أمي تعاني.

يصل بي التفكير في تلك اللحظة حدا لا يحتمل معه الصبر لحظة واحدة. أغلق النوافذ وأطفأ المصابيح، وأترك البقية **لسنية** الخادمة،

التي تأتي ثلاث مرات في الأسبوع تغسل ملابسي، وتنظف الشقة، وتطبخ لي طعامي.

أخرج حتى دون أن أخذ معي حقيبة ملابس. أكتفي بما أرتديه، وأهرع بالنزول. أتصل قبل نزولي **بممدوح**، وأخبره لاهثا:

- أنا مسافر.

يلزم الصمت، كأنه شق عليه ما يسمع، وللتو قد فارقني. أكرر عليه جملتي ثانية:

- أنا مسافر.

يسألني، وأنا أتخيل الحيرة في عينيه:

- خير؟؟

أجيبه مندفعا:

- لا أدري.. ولا أظنه خيرًا؟

ألحَّ عليّ أن أنتظر ليذهب معي، رفضت، وقلت له:

- لا! الأمر لا يحتمل انتظار.

لا أدري لم اتصلت **بممدوح**. ربما تكون محاولة لتخفيف فيما يثقل به صدري. أغلق الهاتف، وأسرع بالنزول. ترى ماذا فعلت مجددًا يا أبي بأمي؟ لن أغفر لك هذه المرة إن آذيتها.

آخذ أول تاكسي، وأذهب إلى المطار. اتصلتُ بأحد معارفي الذين يعملون في المطار. حجز لي تذكرة في طائرة العاشرة صباحا.

***

على مشارف رحلة التيه

يقولون إن الزمن عدو الإنسان، يقتل شبابه، ويصرع أحباءه، ولا يدع لخليل خليلًا. أما أنا فالزمن في هاته اللحظة جنون عقلي. أحس معه أنَّه يمتد كدهر لا يتحرك الوقت فيه.

هكذا فكرت وأنا أتململ في مقعدي في كافتيريا المطار. أحس بالضيق، أترك المقعد وأتمشى في صالة المطار بين مقاعد الركاب.. سألت لأكثر من سبع مرات عن موعد إقلاع الطائرة، وفي كل مرة تأتيني الإجابة: "العاشرة"، كأنني في كل مرة أسأل فيها سيتغير موعد إقلاعها.

لا مكان يسعني، ولا أقدام تتحمل جسدي المنهك. عدت إلى الكافتيريا، وجلست مرة أخرى. قررت ألَّا أغادرها حتى موعد إقلاع الطائرة. أقتل انتظاري بفناجين الشاي والقهوة. أرى وجه الجرسون الحائر، لا يكاد يتركني حتى أناديه وأطلب فنجانا آخر. ينظر لي في شك، كأنه يحدث نفسه: "هل وقعت في شخص مجنون؟".. "نعم يا صديقي أنا مجنون. مجنون حيرتي وانتظاري. لا تدري أن عقلي قد ضاع، وأن قلبي اشتعل بالهم صغيرا. لا تدري أني أغنى الناس مالا

وأفقرهم سعادة. لا تدري أني يتيم الأب، وهو عائش أمامي بصحة قوية، وجسد ضخم كأنه عملاق. وأن لي أمًّا تعيش التعاسة في كل لحظة".

لطالما سألت نفسي: أي حظ عاثر ذلك الذي أوقع تلك المرأة النقية، طيبة القلب في طريق ذلك الوحش المفترس، الذي لا قلب له؟

أبدا لم أجد الإجابة لدى أحد.

كلما استرجعت الذكريات، داهمني كدر شديد. لا أذكر أني لمحت الابتسامة على شفتي أمي إلا مرات قليلة كانت تقابلني بها، وإن أخفت وراءها مرارة وعذابًا فوق حد الاحتمال.

أي قوة تلك التي تجعلها تتحمل كل ذلك العناء، فوق ما لا يحتمله أي بشر؟! لم تكن تفعل ذلك إلا من أجلي.

دخلت عليها الحجرة، ووجدتها في ركن السرير تبكي مثلما لم أرها من قبل. سألتها، وقد ارتميت في حجرها:

- مالك يا أمي؟

لزمت الصمت، ولم ترد عليّ. ألححت عليها ببكائي؛ فردت، وهي تحاول أن تخمد بكاءها، وتمسح دموعها، التي خانتها وظلت تتساقط:

- لا شيء.

لا شيء يمكن أن تخفيه أمي، وعيناها بحران من دموع تحويان الألم وقسوة المعاناة. معاناة عرفتها رغم سني الصغير. لا يكاد يمر يوم إلا وأسمع نشيجها خلف باب حجرتها المغلقة، ولمَّا أدخل عليها تسارع بمسح عينيها، وتبادرني بابتسامة مصطنعة، لا تحسب أن صغيرها وعى ما تداريه.

لكن أشد ما كان يحيِّرني، ويجعلني أتساءل دوما: "لم أمي بالذات أمي دون نساء أبي الثلاثة التي يتعمد إهانتها وإذلالها بحرص شديد؟"

ظلَّ السؤال حائرًا حتى سمعت أبي يزعق بصوته العالي، ذلك الصوت الذي يهابه الجميع حتى أظنها جدران البيت تخافه، وترتج له أول ما تسمعه. اختبأت أول ما سمعته في ركن ضيق ما بين الدولاب وجدار حجرة أمي، أحسب أنه يقصدني.

دخل الحجرة، ودار كالثور يفتِّش عن أمي التي جاءت وراءه. اختلست النظر إليهما، فرأيته يمسك بشالها الأسود، قبل أن ينخلع من حول رأسها، فيمسك بشعرها، ويجذبها إليه بقوة يده، ويدفعها أمامه إلى السرير.. صرخت أمي كما لم أسمع صراخها من قبل. قاومته بعنف حاولت أن تنفلت منه، رفعها بسهولة كأنها حمامة صغيرة بيده الضخمة. ظل ممسكًا بها، ورجلاها تتطوحان وتضربان في الهواء كمشنوق. جاءت إحداها في بطنه، فرماها كأنما يلقي بشيء لا قيمة له.

رأيت جسدها يطير.. نعم رأيتها تطير في الهواء، ثم ارتطمت في حافة السرير النحاسي الذي سقطت أعمدته أول ما اصطدم به جسدها. أنّت أمي من الوجع أنينًا مفزعًا، لكنها رغم ذلك تحاملت على نفسها، وقالت بصوت واهن:

- مهما تفعل يا **ضبع** لن أرضى عنك، ولن تأخذ مني شيئا حتى لو قتلتني ألف مرة!

لم أفهم ماذا تقصد، لكن يقينًا أغضب كلامها أبي. لا بل زاد جنونه، حتى أني رأيت وجهًا تبدَّلت ملامحه حتى بدا كصورة شيطان كانت مرسومة في رأسي. ضربها في بطنها بحذائه الكبير، وبصق عليها ثم انصرف، وهو يشتمها:

- سوف نرى يا بنت الكلب!

خرجتُ من وراء الدولاب، وقد بُلتُ على نفسي من الخوف. ارتميت على أمي التي كان الدم ينز منها، فهتفت فيها مرعوبًا:

- الدم يا أمي!

مسحت الدم عن شفتيها، ثم أخذتني في حضنها، ولم تتكلم. ألححت عليها مرارا أن تتكلم، لكنها كتمت في صدرها ولم ترد عليّ.

"مؤكد هي أمي".. أشهق بصوت يخمد في أعماقي.

أستيقظُ من جنون تفكيري على صوت ينبهني:

- الطائرة ستقلع.

أنهض بتثاقل، أعطيه حسابه، وأترك ورائي على المنضدة: ثلاثة فناجين قهوة، وثلاثة مثلها شايا، ومطفأة السجائر مكدسة بالأعقاب.

***

قبل الظهر بقليل وصلت الطائرة مطار **ص** بعد رحلة استغرقت تقريبًا ساعة في الهواء. لم يختلف الأمر خلالها كثيرًا. ظللت طوال الرحلة أحدِّق في الساعة مما لفت إليَّ انتباه الراكب بجواري. سألني مهتما: "هل تعاني من شيء؟".. شكرته، وقلت له: "لا".. أظنه لم يقتنع بإجابتي، وهو يتابعني لا أكف عن النظر إلى الساعة. كان يقرأ في المصحف من سورة يوسف. سمعت صوته الخفيض، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿**وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ**﴾[٢]

قلت في نفسي: وأأسفاه على **منتصر** وابيضت عيناه من كثرة الحزن والهم.

---

[٢] **(يوسف-84)**

أتصل بعمي فور نزولي من الطائرة.. يرد عليّ بعد محاولتين كاد فيهما عقلي يطير.. قال لي بنبرة انكسار واضحة في صوته:

- لا تذهب إلى البيت..

قالها، ثم صمت لفترة، ظننت خلالها أنه أغلق الهاتف، قبل أن يكمل كلامه، بنبرة أشبه للبكاء:

- تعال إلى مستشفى ق؟

أصيح فيه مرعوبًا، أحاول مراوغة الشك في صدري، وهو يقين كالشمس:

- لماذا يا عمي؟

جاءني صوته كخنجر عبر الهاتف:

- أمك مريضة.

ستهب الريح الشديدة، ويشتد المد. سترتفع مياه البحر، وتناديك الأمواج إلى الأعماق. ستحاول أن ترفع يديك لتستغيث. لكن أنفاسك تنقبض، ويسحبك الموج رويدًا رويدًا إلى أعماقه. تظنك أنك أنت الذي يغرق. تتفاجأ بعد قليل أنه شخص آخر. شخص أقرب الناس إليك.

هاتها يا عمي ولا تتردد. تظن أنني لم أعرف منذ أول مكالمة. لا أصدق أن أمي مريضة. أمي تموت! قلها صراحة يا عمي أنها قررت أن تستريح بعد طول الشقاء الذي عاشته مع أبي، وكتمته في صدرها، تخشى أن أعرف حتى لا أكره أبي. لا تدري أني أكرهه.

كان أمامي ساعة كاملة حتى أصل إلى المستشفى. هذا في أحسن الأحوال، لو مضت بي الظروف في أفضل ما يكون.. أخذت أفرك يدي بعصبية شديدة، أتلفت يمنة ويسرة أبحث عن تاكسي فور خروجي من المطار.

الوقت كالسيف إن لم تقتله قتلك. لكنه أين ذلك السيف مع وقت صار كالجنون لا يتحرك قيد أنملة. ثقيل كصخرة ضخمة.. لا أعرف سر عناده لي كأنني عدو له.. يمضي كالريح وقت أن أريده أن يتوقف، ويكون كجبل صامد لا يتحرك وقت أن أريده أسرع من ريح. أي جنون هذا الذي أنا فيه؟ لم لا تطوى المسافات بقرار من عقولنا، وتصبح لا شيء وقت أن نريدها؟

كم أحسد في هذه اللحظة ذلك الطائر الذي يضرب بجناحيه سريعًا، محلِّقًا إلى أي مكان يريده بسرعة يقررها هو.

- آه يا أمي!

أرفع رأسي عاليًا، فخيّل لي أن السماء لونُها أسود، وأن الشمس التي ترتفع في السماء كتلة من نار مستعرة، وأن ما بداخل صدري كتلة حجر، قلت في صمتي:

- لو كان لي قلب لتوقف نبضه من الحزن على أمي.

أشار إليَ أحد السائقين، فأركب معه، شاردا ذهني، يسألني مرارا عن وجهتي ولا أجيبه، يضع كفه على كتفي، ويهزني: "يا أستاذ". أنتبه إليه فزعا، وأطلب منه أن يأخذني إلى مستشفى **ق**، أضفت متوسلا:

- بسرعة من فضلك، ولك ما تريد.

يقود السائق، السيارة، بسرعة بطيئة حتى أنني ظننت أن السيارة لا تتحرك. يقف تارة، قبل أن يواصل سيره بسرعة أبطأ. يبدو لحظي العاثر أنني وقعت مع شخص يبتدئ حياته مع قيادة السيارات.

لا تسلِّم روحك إلى غبي نزق. حياتك مهددة في كل لحظة، وإن أفلح سيضل بك الطريق.

أنظر إليه بغيظ، أرفع ذراعي، أهم أن أصفعه، أتراجع وأتوسل إليه بصوت أقرب للبكاء:

- من فضلك.. زوّد السرعة.. أمي تموت.

لم تكن كلماتي تعني شيئًا بالنسبة لسائق يبدو أنه مصاب بداء البلادة ينظر لي ببلاهة. يصفِّر من بين أسنانه.. يدندن مع أغنية قميئة يتهادى صوتها من (الفلاشة) التي يركبّها في تسجيله. ضربات طبلتها تقرع أذني. أخيرًا خرج صوته، وليته لم يتكلم، قال بكل هدوء:

- الدنيا لن تطير!

لا أتحمل نزقه، يجن جنوني، أنفجر فيه صارخًا:

- لا! طارت.. عليك أن تسرع وإلَّا.

ارتبك السائق للحظة، ويبدو أنه ارتجف لحالة الغضب الشديدة التي وجدني عليها، فقال يحاول أن يبرر لي:

- سامحني يا أستاذ! ولكن انظر كما ترى الطريق مليء بالمطبَّات.
- لا يعنيني أن يكون الطريق مليئا بالمطبَّات أو حتى مسدودا. كل ما يعنيني هو أن أصل بسرعة.

أكرر بعنف، أكوِّر يدي كملاكم، وأضيف:

- زد من السرعة.

يتوتر السائق، يزيد من السرعة. لكن هيهات؛ فبعد مسافة قصيرة يستعيد بلادته، ويمضي في ردحة غناء بصوت أجش لا حلاوة فيه.

أي حريق مستعر في قلبي، وأي جنون ذلك الذي يوقعك في طريق الحمقى. والله لولا أعصابي المفتتة، ولولا أني في عالم حزني لانقضضت عليه وأطبقت على عنقه بكلتا يديَّ.

فجأة توقفت السيارة، أنظر إلى السائق شزرا، وأسأله:

- لم توقفت؟

يرد عليَّ بكل برود، وكأنَّه وجد ضالته في التشفي مني:

- كما ترى.. هناك لجنة مرور.

يضيف وهو يضغط على الكلمات بين أسنانه، كأنه يمضغني:

- ألم قل لك الدنيا لن تطير.

أرجع برأسي إلى الوراء.. أسترخي على المقعد، ودوامة من الهم تحيط بي، ولا مفر من الاستسلام لها.

الدوامة تدور وتدور، مركزها في الأعلى يتسع وفي العمق يضيق ويضيق كقرطاس. أضرب بيدي وأبتعد. تطاردني كقدر محتوم. صوت

أجوف يخترق أذني رغم الضباب وعنف الريح: "عليك أن تستسلم وتبقى للدوامة أسيرًا".

***

وسقطت في الدوامة

لا أصدِّق نفسي، كأنني أمام حلم مستحيل.. قال السائق برتابة صوته:

- وصلنا يا أستاذ.

كنت قد استسلمت قبلها لمقعدي ساكنًا، ولا شيء أمام عينيَّ سوى صورة أمي، حتى أنني لم أشعر به وقد سلك طريقًا ترابيًا بين الزروع، مليئًا بالمطبَّات الوعرة، أخذت معه السيارة تتخبط كحبة ذرة في زيت ساخن. لم أتنبه إليه ولم أسمع كلمة واحدة وهو يحدثني أكثر من مرة. يبدو أن أذنيَّ كانتا كجهاز حسَّاس لم تلتقط منه سوى كلمة الوصول.

أهبط من السيارة، ولا أتحرك كثيرًا، لأجد عمِّي أمام بوابة المستشفى ينتظرني. كان آخر اتصال جرى بيننا قبل عشر دقائق، أخبرته فيه بقرب وصولي.

هناك لما أهرع إليه مندفعًا، لم أكن بحاجة لأعرف لما آلت إليه أمي. سأرى غيمة من حزن كبير تحوم في عينيه، أسرع بكلامي:

- هل ماتت؟

يأخذني عمِّي بين ذراعيه. ويلومني قائلا:

- هل هذا كلام؟.. هل هذا ما تتمناه لأمك؟

أُخرج نفسي من بين ذراعيه، وأسأله:

- إذن ماذا جرى لها؟ صارحني. سأتحمل الصدمة.

لم أتوقف عن الكلام. وعمي ينظر لي مشفقا، يحاول أن يهدأ من قلقي دون جدوى.

أخذني من يدي، ودخل بي من البوابة الكبيرة إلى داخل المستشفى.

أمام بوابة الاستقبال، عربة إسعاف صفراء واقفة، يتقدم الممرضون ويحملون مصابا يبدو من جروحه العميقة والدماء الغزيرة، أنَّه تعرَّض لحادثة كبيرة. الممرضون يحملونه بطريقة سيئة. كان عليّ أن أنهرهم وأنبههم لسوء ما يفعلون. غفلت عنهم وواصلت سيري.

ثمة نساء يرتدون ثيابًا سودا، ويتلفعون بأغطية أكثر سوادا يلطمون على خدودهم، يعترضن الطريق أمام ممر الدخول. رجال أمن المستشفى يحاولون أن يبعدوهن. لابد أن مريضهن مات.

بصعوبة استطعت المرور برفقة عمِّي إلى داخل المبنى. في الطريق قابلت زميلًا لي، تعرَّفت عليه في الأيام التي كنت أجيء فيها إلى المستشفى متدربا. سلَّم عليّ بحرارة، ولما لم يجد مني نفس الاهتمام تعجَّب. همس عمِّي في أذنه، فتمتم في نفسه متضايقًا. عمِّي أخبره بما جرى لأمي، فأصرَّ أن يرافقنا، وهو يلوم نفسه كيف لم يعرف سابقا.

أصعد وراء عمّي السلالم، ويمر بي بين الطرقات والأقسام حتى نصل إلى قسم العظام.. شهقت: "قسم العظام!!"

مرة أخرى تستفيق من الحلم. تضحك. تظن أنك قد أفلتّ من الدوَّامة، لكن هيهات هيهات. ها هي الريح تصفر كآلاف الأصوات البشعة. تحاول أن تصُمَّ أذنيك. تكتشف أن الدوامَّة وراءك، وتتبعك أنت بالذات، وحالما تصل إليك، ستبتلعك أن بالذات.

أدخل خلف عمي إلى العنبر. الأسرة تئن بوجع المرضى، وشهقات من معهم. أقف مشدوها أتأملهم في صمت، أبحث عن وجه أمي، ولا أجده. يجيء عمي ويسحبني من يدي، يشير إلى أحد الأسرة، يرقد فوقه شخص ما لا يبين منه شيئا. أسأله بدهشة:

- من هذا؟!

ينظر إليّ بريبة، ولاذ بالصمت. لكنني سمعته وهو يغمغم في نفسه:

"هل جن ابن أخي؟

لا! لم أجن. لكن الجنون أقرب طريقة إلى الحقيقة. والحقيقة صعبة المنال.

طال صمت عمي، ولم يجب على سؤالي أنها أمي، تركني وحدي أكتشف الحقيقة المريرة، أكتشف أنها بقايا لامرأة وذكريات. أربطة شاش بيضاء، وضمَّادات تلف جسدها، والجبس سجن جديد يحبس الساقين واليدين وما بقي من الجسد، والوجه أفتش عنه وسط زحام الأربطة فلا أبصر غير عينيين واهنتين تومضان للحظة ثم ينطفئ الوميض كلمبة تنير للحظة وتنطفئ للحظة، وفم خرجت منه الكلمات ضعيفة ومترنحة:

- أنت جئت يا نور عيني.

هل قالتها بالإحساس؟ أم أنها شمَّت رائحة ثيابي كيعقوب لمَّا شمَّ رائحة قميص يوسف؟ أردت أن أرتمي في صدرها.. لكن أين هو ذلك الصدر؟.. تحجَّرت عيناي وأبتا أن تنهمرا سيلًا من دموع. كان الحزن أكبر من أن أبكي. كنت خارج حدود الإدراك والإحساس أقف مذهولا لا أصدق أنها أمي. سمعت شهقة الطبيب الذي رافقني. راح يواسيني ويأخذ برباطة جأشي. لم أستمع إليه. كنت كفاقد للوعي. فقط عيناي شاخصتان تحدِّقان في هذه المرأة الممددة على السريرة أتيقن أنها أمي. رغم أني

سمعت صوتها وتأكدت أنها هي، إلا أنني اندفعت خارجا، وبحثت عن عمي، الذي لم يتحمل، وتركني وحيدا. كان لائذا بالجدار، يغطي وجهه بعيدا عني، سألته:

- أين أمي؟

طفق عمّي للحظات ينظر لوجهي مذعورا مبهوتًا، يفكر ما الذي أصابني. للمرةِ الثانية يدور في عقله ذات السؤال: "هل جن ابن أخي؟"

صفَّق على كفيه، وحوقل قائلا:

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

يدنو مني، ويمسك مرفقي، قائلًا لي يحاول أن يشد من عزيمتي:

- تمالك نفسك يا ولدي.

كيف يمكن ذلك يا عمّي؟.. وأنَّى لي بالقوة التي أتمالك بها نفسي، وأغلى إنسانة إلى قلبي صارت رباطًا من شاش.

سألته مرة أخرى:

- هل تصدق أن هذه هي أمي يا عمِّي؟

يُحدِّق في لفترة دون أن يتكلم. اندفعت أحاصره بالأسئلة:

- ما الذي جرى لأمي؟ من فعل بها هذا؟ ولم؟

ينظر لي بحزن صامتًا. يشدني إليه ويضمني إلى صدره؛ أرمي برأسي على كتفه، وأخيرا استجابت المقلتان، وانهمر السيل.

***

الخروج الأخير

لطالما تساءلت: "كيف تزوَّجت أمي من أبي؟"

قالت أمي: "جاء أبوك لجدك مهددًا أن يكفّ عن جمع الناس في بيته، وتحريضهم عليه. رفض جدك، وقال له متحديا:

- لن نتركك إلا بعد أن ترجع حقوق المظلومين.

ما كان من أبيك إلا أن ساوم جدك، يظن نفسه يستطيع أن يشترِ كل الناس. قال له:

- اسكت، وسأرجع لك أرضك، وأزيدك نصف فدان من عندي.

كان جدك قوي الشكيمة لا يرده عن الحق إلا الموت. نظر إلى أبيك شزرًا ولم يرد عليه. في اليوم التالي جمع الناس، حكى لهم ما دار بينه وبين أبيك. زاد ثقتهم في أنفسهم، ورأوا الفرج قريب على يد جدك، ولكن بقدر قوة جدك كان أبوك أيضًا عنيدًا رأسه كالصخر، وعناده كالنار تأكل

كل ما أمامها.. عاد في المساء راكبًا فرسه الأسود، وخلفه الخفر يحملون البنادق. ضربوا الرصاص في الهواء وأحاطوا بالبيت.

دخل أبوك بالحصان إلى حرم البيت. كنت أقف وراء جذع نخلة أرى ما يدور، والخوف ذئاب جائعة حولي، تبرز أنيابها لتنهشني.

نزل أبوك من على الحصان، وقال لجدك مهددا:

- لا تتحداني يا **ريان**. لا أحد يستطيع الوقوف في وجهي.

رد عليه جدك بتحد وغلظة:

- لنرى.

استدار أبوك، وتهيأ لأن يركب الفرس، وهو يزعق:

- سوف أريك يا **ريان** ما لم تره في حياتك.

وقبل أن يركب الفرس، وقعت عيناه عليّ خلف الجذع، فحملق في كأنه سيأكلني. شد اللجام، وتقدم نحوي. سمعته يقول: "صبية جميلة!"، ثم سألني:

- بنت من أنت يا صبية؟

بقدر شجاعتي التي كان يصفني بها جدك، إلا أنني خفت من نظرة عيني أبيك المرعبتين، تلعثمت ولم أرد عليه. تقدم جدك، ولف جسدي المرتعش بذراعيه. قال لي يهدئني:

- لا تخافي يا ابنتي؟

هزَّ أبوك رأسه لما عرف أني ابنة أكبر عدو له. رفع جدك إصبعه في وجه أبيك، وزعق فيه:

- هيَّا اذهب من هنا وافعل ما تريد.

ذهب أبوك، لكن الشر في قلبه لا يذهب. خطف خالك، وهدد جدك بذبحه إن لم يسكت، وزاد أن طلبني للزواج.

رأيت الانكسار في عيني جدك. كان صعبًا عليه وعليّ أن نفقد خالك. قلت له ووجهي إلى الأرض أداري دموعي: "سأتزوجه".

وسَّع جدك عينيه، وصرخ في:

- لا! لن يحدث ذلك ولو على جثتي.

ولم يمض أسبوع إلا وتزوجت أباك.

***

لا تبك على حزن أصغر، واترك بكاءك للحزن الأكبر، ولا تدع دموعك تنهمر لأقل سبب، دعها للحظة العظمى قبل أن تجف المقلتين. يقولون أيضا: "الدموع تخفف مأساة الملتاع"، ولكن ماذا عنها إذا كانت حارقة كالجمر.

دخلت عليّ أمي، وهي ترقد في حجرتها القديمة في بيت أبيها "**ريان**". كانت الحجرة مطلية بلون أصفر باهت، وسقفها من جريد النخيل، يتدلى منها مصباح لونه أصفر كاب، احتل العنكبوت بخيوطه كل الأركان. رائحة الرطوبة نفاذة وخانقة. رقدت على سرير من جريد في منتصف الحجرة كانت تنام عليه لما كانت صغيرة. أصرت أمي أن تنام عليه قبل أن تدفن.

كان جسدها المسجى فوق السرير يحمل كل الراحة، وكأنها كانت تنتظر الموت بلهفة. لم تمهله كثيرا، ولم تتردد في استقباله.

في المستشفى وقبل موتها، حملتني وصية وعهدا. أما الوصية، فقالت أمي:

- أخرجني من بيت جدك يا ولدي.

كان عمي قريبا، فجاء وجلس إلى جواري. رفعت عينيها، وأضافت بإصرار:

- حُرِمتُ منه منذ زواجي من أبيك. فاترك لي فرصة أخيرة أن أزوره وأنا في كفني.

لم أتمالك نفسي، فأجهشت في البكاء. ربت عمي على كتفي، فقالت له توصيه:

- خذ بالك من **منتصر** يا **كمال**.

حاول عمي أن يتماسك، ويتمالك نفسه يخشى أن تتساقط دموعه، وقال بصوت متهدج:

- كفاك يا **فاطمة**.

لم يعجب الكلام أبي (وصية أمي قبل موتها) ثار بشدة، وأقسم أنها لن تخرج إلا من بيته. زام فيه عمي، وقال له:

- هذه وصيتها ولابد أن تُنفذ.

نزل الضيق الشديد على وجه أبي وتلون بالسواد، مدَّ طرف عصاه في وجه عمي، وقال بغضب عارم:

- وماذا يقول الناس عني؟

لابد لكل حكاية نهاية، ولابد للاحتمال حدود. لا يهم أبي إلا كلام الناس. حتى في لحظات الموت لا يتذكر إلا كلام الناس. لم يكرمها طوال حياتها ويأبى حتى أن يكرمها في موتها.

أي ناس أولئك الذين يتحدث عنهم أبي؟ هل هم الأعيان من النجوع المجاورة الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد؟ الناس في نجعنا لن يمشوا في جنازتها لو خرجت من دارك. أتراك لا تعرف ذلك؟.. هممت أن أتقدم، وأصرخ في وجهه: "كفى!" اكتفيت بوقوفي كالعاجز، أتابع شجارهما. أي مهانة أكثر من وقوف الإنسان عاجز حتى في أحلك اللحظات. دائما يقهرني ويخمد صوتي قبل أن أتكلم، يعايرني: "اذهب يا ابن أمك". أسمع ضحكات أبنائه المكتومة. ألملم خيبتي، وأمقت نفسي أنني فكرت في أن أتكلم معه. الآن، لو صرخت فيه: هل سيقول لي: "اذهب يا ابن أمك" بعد أن رحلت أمي.

أمسك عمي بطرف العصا، ودفعها بعيدا. قال لأبي بنبرة قاطعة:

- ستخرج من المكان الذي أوصت به.

دار أبي حول نفسه كأسد جريح، قبل أن يطوّحِ طرف جلبابه، ثم يمضي بعيدًا إلى حيث يقف أبناؤه. تكلَّم معهم ثم ركب السيارة، والشرر يتطاير من عينيه. جاء أكبر أبنائه **جمال**، وتقدم نحو عمي قائلا:

- يقول أبي أنه لن يحضر الجنازة إذا لم تخرج من بيته.

رد عمي بحسم، قائلا **لجمال:**

- دعه يفعل ما يشاء.

***

الفراق الأخير

أي جنون ذلك الذي أنا فيه. وحيد أمام جسد أمي المسجى على السرير، أناديها فلا ترد عليّ. لأول أجدها صامتة لا ترد عليَ. يدها مفرودة وأحلامها التي كانت تسكن رأسها رحلت معها.

في المستشفى رججت السرير الراقدة عليه، وهتفت فيها أن تكلمني. لم ترد عليّ، فصرخت، وتلفت الناس المحيطين بأسرّة المرضى إليّ باندهاش.

لحقني عمي، وأمسك بكتفي ورجّني رجًّا عنيفًا كأنه ينفض الشيطان الذي تلبسني:

- استغفر الله يا **منتصر**.

قلت له وأنا أنشج باكيا:

- لا أصدق أني لن أراها مرة أخرى.

سقطت دمعة من عينيه، وواساني:

- هذه إرادة الله!

اندفعت واقفًا، وحمت كالمجنون محتجا، لم أمي بالذات؟

تسمَّر عمي، ووقف حائرا من الصدمة لا يصدق ما أقوله، قبل أن يسحبني خارج الحجرة، زاعقًا فيَّ، يعاتبني:

- هل كفرت؟!

أخذت أبكي، وتجرعت كأس المرارة، لم أستطع تحمل طعم مرارتها، أخذت أردد:

- سبيل الله عليك يا أمي!

ضمَّني عمي إليه ضمًّا شديدًا، وطلب مني أن أصبر وأحتسب.

كشفت الغطاء عن وجهها، ولا تزال ساكنة لا ترد عليّ، لا تتحرك خلجة واحدة فيها أوشك الجنون أن يستبد بعقلي، بل هو استبد بعقلي فعلا.

أي جنون وحماقة هذه التي تجعلك تتحدث إلى أقرب الناس إليك، وأغلاهم إلى صدرك، بل هو كل حياتك ومالك في الدنيا، تتحدث إليه ولا يجيبك، يبقى ساكنًا لا يتحرك حتى لو هزَّته كل عواصف أحزاني، هي التي كانت تحركها مجرد همسة مني.

لمَ اختار الموت أمي بالذات دون بقية الناس؟ لمَ لمْ يختر أبي ويريح الناس من بطشه وظلمه؟ كانت أمي طيبة وصبورة، وكانت الخنجر المغروس في صدر أبي.. يقولون إنها ماتت، وسترتدي كفنها الأبيض. أي عبث ذلك؟! عاشت كل حياتها ترتدي ثيابًا سودا، واليوم عند موتها ترتدي كفنا أبيضَ.

لطالما تساءلت عن سر ردائها ثوبها الأسود الضافي، الذي لا تخلعه أبدًا، وتضع على رأسها شالًا أسود حتى أنها تظهر لمن يراها كليل مدلهم. يقولون عنها أجمل النساء، لكنها استماتت أن تدفن ذلك الجمال الرباني، وتخفيه. يقولون أيضًا عنها إن لها وجهًا مدورًا كالبدر، ووجنتين ناصعتي البياض كالحليب، وشعرًا أسود كظلمة الليل، كنت أراه ينسدل أحيانًا على كتفيها، وأبصرته أكثر من مرة خلسة من فتحة كالون باب حجرتها. كانت تسترق النظر لنفسها في المرآة، وأسمع أنينها من وراء الباب كأنها تعاتب شخصًا آخر لا أراه معها في الحجرة. كنت أراها كالبدر والشمس وكل الكواكب. كانت هي النور ذاته في كل حياتي القصيرة المظلمة.

كان جمال أمي يثير الغضب والقهر في نفوس نساء أبي الثلاث.

سألت أمي عن سر السواد في حياتها، خفضت رأسها ولم تجبني، وفي مرة أخرى، كنت ممددا على فخذها، هزَّت أمي رأسها، ثم أومأت بضحكة عابرة ظهرت على زاويتي شفتيها سرعان ما اندحرت، وقالت: "هل تعرف؟".. نظرت إليها، فتابعت: "أنت جئت غلطة بعد خمسة عشرة عاما من المقاومة"

اعتدلت في جلستي، وحدَّقت في وجهها، وسألتها مندهشا: ماذا تقصدين؟

سكتت أيضًا، ولم تجبني، لكنني عرفت. عرفته في النظرات الغاضبة في وجه أبي لما كان يتقرب منها، فتعارضه، ولا تستسلم له أبدا.

سمعته في كلام نساء أبي الهامس دائمًا في الواسعة داخل الدار. قالت **نعمات** الزوجة الأولى لأبي إنها لا تعرف سر إبقاء أبي على أمي. ردت عليها زوجة أبي الثانية: يبدو أنها صنعت له عملًا.. مصمصت الثالثة شفتيها، وقالت: **الضبع** رجل وعنده كرامة، ولن تكسره امرأة.. عادت الأولى متسائلة باستنكار: "وهل جعلت له من قصفت رقبتها هذه كرامة؟!".

دخل أبي في تلك اللحظة الدار، وسمع كلامهن. هاج كالثور، وأخذ الدنيا أمامه، صاح بأعلى طبقات صوته:

- يا بنات الكلاب.

ارتجفت النساء الثلاث، وصرن يبحثن عن حفرة في الأرض تبتلعهن، لكنهن لم يجدن غير يد أبي الكبيرة تنهال عليهن بالضرب، وأمسكت اليد الأخرى بالعصا تضرب لا تحدد مكانًا. نادى إخوتي الكبار، وأمرهم أن يجروهن إلى حوش البهائم. كانت لحظة قاسية أن يجر كل منهم أمه، يسحبها كنعجة إلى الحوش، ولأن إخوتي قساة أورثوا القسوة من أبي لم يبالوا. أخذت النساء يتوسلن لأبي. صمَّ أذنيه، ولم يسمع، كأنه غارق في نشوة الانتقام منهن. ربطهن في مقود البهائم، ونزل عليهن بالسوط حتى نزَّ الدم من الثياب الثقيلة.

كانت أمي بالأعلى تنتظر دورها، لكنها أبدًا لم ترتجف. وقفت بثقة على قدميها كأشجع ما تكون عليه المرأة. وكان الأكثر غرابة أنها أخذت تدعو الله أن يرحم النساء الثلاث.

كم عظيمة أنت يا أمي!.. آه يا أمي! آه!

دخل عمِّي في تلك اللحظة، وجدني أصرخ كالنساء، أغرس رأسي في صدر أمي. ربت على ظهري، وقال يحثني:

- هيَّا يا ولدي.. النساء بالخارج جئن لتغسيل أمك.

انتفضت صارخا، وهببت كالممسوس متشنجا: لا.. لا لن تُدفن.

***

جلستُ أمام قبر أمي صامتا مذهولا لا أصدق أنها صارت كومة من تراب. قفزت في الحفرة العميقة، التي كانت ستدفن فيها، وصِحتُ في الناس الملتفين حول القبر وطلبت منهم أن يهيلوا عليَ التراب معها.

تبادلوا النظرات الحزينة المشفقة عليّ، قبل أن يمد عمي يده إلي، ويصرخ في:

- هيَّا.. تعال! كفاك لعب الصغار.

لم أستمع إليه، وظللت مكاني أهذي. ولما رأى عمي نظرات الناس، وجنوني، مد يده في مرة أخيرة مهددًا إياي بالنزول. استطاع بقبضة يده أن يسحبني لمَّا تمكن من جلبابي. ضربت بقدميَّ كطفل صغير، متوسِّلا إليه أن يتركني، لكنه سحبني والشرر يتطاير من عينيه.

لم يمش أبي كما قرر وكذلك إخوتي في الجنازة. انتشر الخبر في النجع، فتقبلوا ذلك براحة مما أتاح لهم فرصة السير في جنازتها، وتشييعها إلى مثواها الأخير. توافدوا وتزاحموا في حمل نعشها. يقولون إن هذا أقل ما يمكن تقديمه لبنت الرجل الذي وقف بجوارهم، وأيضًا لمواقفها العظيمة التي سمعوا عنها، وتحدِّيها ووقوفها في وجه **الضبع**، الذي لم يستطع أعتى العتاة مجرد الدنو منه.

قالت أمي: كن بطلًا في عيون الناس، تعش خالدًا في ذكرياتهم، في يقظتهم وأحلامهم. ولا تكن مكروهًا في عيونهم، حتى وإن ارتعبوا لرؤياك أو مجرد ذكر اسمك.. هو خوف زائف سيطير مثل بخار، ولا يبقى منه شيء في صدورهم أو أمام أعينهم وقت أن تأتيهم شجاعة وحتى إن كانت شجاعة طفل.

سمعت همساتهم، وهم يترحمون عليها وعلى جدي **ريَّان**. قالوا إنها عاشت بطلة وماتت بطلة. ولكن هل أسعفها كلام الناس من ظلمة القبر.

القبر حفرة موحشة رقدت فيها أمي. والجنون تراب توارت تحته. أي حقيقة أوضح لقلب إنسان من الموت. لكنه كان ككذبة كبرى لا أصدق أنها أخذت أمي.

كان الوقت ظهيرة لما ذهبنا لدفنها، وكانت الشمس مستعرة تصخب بلهيبها، حتى أن العرق أخذ يتفصد من أجسام المشيعين كمطر منهمر، فتلطَّخت به الثياب والجلابيب، وصارت دوائر بيضاء تحتل الظهر. لكنهم لم يبالوا بذلك كله. ظلُّوا حتى دفنوها، ثم انفضوا بعد ذلك من حول قبرها، وبقيت برفقة عمي ونفر قليل.

قال لي عمي: هيا!

كان الغبار يغطّيني، جثوت على ركبتيَّ ورفعت يدي إليه متضرعا:

- اتركني معها لساعة، فأنا لن أراها مرة أخرى.

أشفق عليّ من لهيب الشمس، وقال:

- لن تتحمل حرارة الشمس.

كانت تحيط بالمقابر أشجار الأثل، فأشرت إليها، وقلت:

- سأجلس هناك.

ولمَّا وجد مني إصرارا شديدا تركني وانصرف على وعد ألَّا أتأخر.

***

الرحيل

لا أعرف كيف سأعيش في هذا العالم المخيف دون أمي. كيف تأويني هذه الجدران الصامتة، وصوت أمي غائب إلى الأبد. ليل طويل لا ينتهي، ووحشة لا تنقطع، وحجرة خالية، وطفل رغم سنوات العمر التي تراكمت فوقه لا يزال صغيرا يبحث عن أمه. أمه التي استكانت روحها، ونام جسدها في طمأنينة لطالما كانت تنشدها.

تاه الطفل في حطام نفسه المنكسرة، وصرخ بأعلى صوته من دون أن يسمعه أحد، لأنه كان يصرخ في نفسه: لن أبقى.. لن أبقى.

حينما فزعت، واستيقظت من النوم، كان لا يزال صدى الصوت بداخلي، فأخذت قراري أنني لن أمكث في البيت لحظة واحدة.. فأي حياة يمكن أن أعيشها هنا داخل هذا البيت، وكل ركن فيه يذكِّرني بها، أتخيَّلها وهي تنتظرني بلهفة المحبوب.

ما كنت أتحمل البقاء فيه وهي بين جدرانه، فما بالي وهي ليست فيه، ولم تعد تبقى بداله. أي مرارة في حلقي تراكمت كمُرِّ الحنظل. لن أبقى.. لن أبقى.

سبعة أيام مضت منذ موتها وفي كل خطوة أخطوها تحوم روحها حولي، أبصرها في كل الأماكن التي كانت تجلس فيها، فوق سريرها وهي تفرد ذراعيها تحتضنني، في المندرة وهي تتابعني حين أذاكر، أمام الحمام وهي تحثني أن أغسل وجهي؛ فتنتابني رعشة مرعبة، وأجهش في البكاء.

هممت بالعودة إلى **ق** في اليوم التالي لموتها برفقة **علاء وممدوح**، لولا أن زجرني عمي:

- كيف تترك جنازة أمك وتذهب؟

تلك الجنازة التي أراد أبي ألا يقيمها لولا شراسة عمي. خلاف آخر احتدم بينهما، ولم أكن حاضرا ذلك الخلاف. حكى لي الخفير الذي أرسله لي عمي لما تأخرت في العودة من المقابر. قال لي إن أباك رفض أن يستقبل المعزيين في مندرة العائلة متحججًا بأنها لم تخرج من داره، فكيف له أن يقيم جنازتها بالمندرة، قال أبوك معترضا:

- ماذا يقول عني الناس؟

مرة أخرى يقول أبي "الناس"، وهو أبعد واحد عن الناس، هو عذاب كل الناس. هل يدرك الكره في عيونهم، واللعنات التي يصبَونها عليه

صبًّا. لو سمع همساتهم وأحاديثهم في الجنازة لتوارى مع أمي تحت التراب.

مرة أخرى تصدى له عمي، قال له متحديا:

- ستكون نصبتها هنا.. ولا مكان آخر.

قال الخفير إن أباك ولَّى وجهه إلى الناحية الأخرى يتمتم بكلام غير مفهوم، لكنه في النهاية استسلم وسط نظرات أبنائه الحانقة المتسائلة.

أضاف بابتسامة انفلقت من بين شفتيه، كأنه هو أيضا يتشفى في أبي:

- انفجر فيه عمك، لم يترك له جنبا ينعدل عليه.

مرة أخرى عمي يتدخل ليواري سوأة أبي. آه لذلك الرجل. لا يريد أن يكرمها حية أو ميتة.

واصل الخفير، وهو يهم بالجري قبالتي:

- توارى أبوك خجلا من أمام عيون الواقفين، ولم يستطع الرد على عمك..

لما رجعت رأيته واقفا يستقبل المعزيين. نظرة الضيق لا تخفى على الناظرين. "بإمكانك أن تمضي وألا تقف." قلتها في نفسي بغيظ، وأنا

أمر أمامه. أعرف أن وقفتك من أجل هؤلاء. أعيان النجوع كما تسميهم. أعرف أنك لولاهم ما بقيت.

كانت أمي شوكة في ظهرك دون نسائك الثلاث. كانت عذابك ومهانتك. تمنيت قبلا أن تموت. ها هي قد ماتت، فلك أن تستريح. ثلاثة أيام ستمضي بسرعة، وتتفرغ لأراضيك وأموالك. لن يبقى في رأسك الضخم ذكرى واحدة لها. تنظر إليّ شزرًا وكأنك تتمنى لو لحقت بها. تمهل ولا تقلق. سأترك لك الدار. سأترك النجع كله. لن تراني بعد الآن.

***

الخروج الأخير

هأنذا قد غادرت البيت بلا رجعة.. غادرته، وقد فقدت كل شيء.. كل شيء.. حتى ذاتي فقدتها.

هل جربت يومًا أن تفقد ذاتك؟ أن تصبح مثل ريشة تضربها ريح صرصر عاتية، تتحكم فيها، وتحركها كيفما تشاء، وأنت عاجز عن أي رد فعل، لا حول لك ولا قوة.

أنظر حولي فإذا كل شيء فراغ.. صحراء واسعة بلا نهاية، أسير فيها كالذي تخبَّطُه الشيطان. تائه في رحلة تيه لا تنتهي. أفتش في الوجوه عن الوجه الذي عرفته وألفته. لا وجه تتطابق ملامحه مع الملامح المحفورة في قلبي. أصرخ كطفل صغير ينظر حوله عن أحب الناس إليه؛ فلما لم يجده يهوي صريعًا.

يقولون إن الفراق صعب له طعم العذاب. وأقول إن الفراق أمر من العذاب. نهاره كدهر، وليله ظلمة شديدة لا تنتهي. لا تكاد تنفرد بنفسك حتى تطاردك الهواجس. تنبعث الذكريات من نقطة ميتة وكأن عقلك تأجج في لحظة، وصار يستدعي أبعد اللحظات وأحلكها. يضعها

أمامك كأنها حدثت للتو. لا يتركك حتى تتقلب بين كفيه كذبيح.. آه يا للوعة الفراق!

كان عقلي يتفجر بتلك الكلمات في طريق عودتي إلى ق بعد شجار عنيف مع أبي. طردني من البيت، مهددا إياي:

- لا مكان لك هنا.

هو لا يعرف أنِّي قررت ألا أبقى، وسأترك له الجمل بما حمل. رأيت الفرحة في عيون إخوتي. ينتظرون ذلك اليوم منذ زمن بعيد. قالت أمي إن أسود يوم حياتهم، حين خرجت الداية، وبشرتهم إنك جئت ذكرا. ضاقت صدورهم، وتغيرت وجوههم، وصفع أحدهم الداية على وجهها، وجرها مثلما يجر الكلب إلى خارج البيت.

يكرهونني مثلما لا يكرهون شخصًا آخر. لم يكن ذلك أبدا لأنني من امرأة أخرى غير أمهاتهم. كلهم من زوجات ثلاث أخريات لأبي.

لطالما سمعتهم يقولون في بلدتنا: كن لأخيك ساعدا وقت الشدة، تحميه من مذلة الأعداء، وتؤويه من مخافة الوحشة. تترفق به وقت أن تضيق به السبل، وتستند عليه وقت لا مآل إليه.

لكنهم أبدا لم يحبونني يوما، ولم يدفعوا عني أذى ساعة.

فها هو أخي **منصور** ينظر إليّ وأنا ساقط بين يدي صبية أشداء يلكمونني بأشد ما تملك قبضة أيديهم. مزَّقوا كتبي وملابسي. لم تعره تأوهاتي شيئا. رمقني بعين متشفية وواصل طريقه كأن الذي بين يدي الصبية عدو له. ولما عدت إلى البيت بملابسي الممزقة كان أول من استقبلني بابتسامته الصفراء. قال لبقية إخوته معايرا:

- إنه عار على أبناء **الضبع**.. لا يستطيع صد ولد هزيل مرغه في الشارع.

نظروا جميعا إليّ باحتقار، ثم تعالت ضحكاتهم تسخر مني. كان أخي يكذب، ولا يخجل من كذبه ولا هروبه. تساءلت في نفسي بألم:

"ترى أيكون تجمعهم وتوحدهم في تلك اللحظة حقيقيا أم أنه زائف ضد عدو مشترك هو أنا. سرعان ما سينفرط بعد أن يجهزوا على ذلك العدو؟".

كنت حائرا على الدوام من سبب كرههم لي وحقدهم الواضح كوضوح الشمس، ولم أشاركهم يوما أبي، تركته لهم كله، حتى الأرض التي هي سبب أطماعهم، لا حاجة لي فيها، بل هي على النقيض سبب معاناتي. قلت لهم أكثر من مرة:

- خذوا الجمل بما حمل.

ومع كل ذلك لا يخجلون في إظهار كرههم لي. كانت فرحتهم كبرى لما قال لي أبوهم: "لن تدخل الدار مرة أخرى".

لا تزال آثار الضرب المَبرح تعلو ظهري كسياط من لهب. كلهم شاركوا في الوليمة بعد أن واجهتهم بالحقيقة، ولولا مجيء عمي في اللحظة المناسبة، لأجهزوا عليّ ولحقت بأمي. ليتهم فعلوا ذلك، وجعلوني أهنأ باللحاق بها.

حاول عمي أن يبقيني، لكنني أصررت على الرحيل. لم تثنني النظرة الحانية في عينيه عن الرحيل لحظة واحدة، ضمني إلى صدره، وقال لي بصوت عال كأنه يتعمد أن يسمعه أبي، وإخوتي:

- هنا بيتك، ولا أحد يستطيع منعك منه. في أي وقت تريد العودة إليه.

رأيت الغليان في عيون أبي وإخوتي. ينظرون إليَّ وعيونهم يتساقط منها الشرر. لكني لم أبال لتلك النظرات، حملت نفسي الخائرة، وقررت أن يكون ذلك خروجي الثاني والأخير.

***

كان خروجي الأول لمَّا نجحت في الثانوية العامة وبتفوق أخذ رأس إخوتي وأخواتي من الحزن. كان أول قرار في رأسي ألَّا أبقى في البيت والنجع. أستعيد ما جرى في ذلك اليوم.

في طريق عودتي إلى البيت، والفرحة في صدري مشرعة لا حدود لها، بدأت أفكر في مستقبلي، وأيضًا خطة خروجي من النجع. حدثت نفسي قائلا: جامعة **ع** قريبة. لن تمكِّنّي من خطتي التي وضعتها في رأسي. إذن هي جامعة **ق** وليس غيرها. قلت لنفسي في لحظة سعادة: هذه هدية من السماء، فلن أتركها تضيع من بين يديّ.

هناك سأكتشف نفسي وسط الزحام والضوضاء. لا تزال في رأسي بقايا ذكريات من زيارتي الخاطفة مع عمي. بهرني الزحام الشديد للناس في شوارعها. أذهلني نفير السيارات التي لا عدد لها. لم يتوقف عمي عن الضحك لما قلت له: هل جاء كل البشر في الدنيا إلى هنا؟ أتذكر كلامه لما قال لي: يعيش في العمارة الواحدة هنا أضعاف ما يعيش في النجع.

لا يغيب عن عقلي أيضًا منظر العمارات العالية، والأضواء الباهرة، وجامع **(ز)**، ومسجد **(ح)** والمولد الكبير فيه.

كان يشدد أبي على ألَّا يسافر أحد من أبنائه إلى **ق**. يبدو أن ذكرى أبيه تؤرقه لمَّا أوقعته راقصة في شباكها، وفقدت العائلة جرَّاء ذلك

عمارتين، فخشي على أولاده من المصير ذاته؛ فينفلت العقد الذي يمسك عليه بقوة بيديه. وحده عمي الذي كان يمكن له أن يسافر في أي وقت يشاء.

يحكي لي عمي في أعقاب كل زيارة يجيء فيها عنها.. كنت أسمع كلامه فيمتلئ شغاف قلبي بالشوق إلى **ق** والعيش فيها، وكنت كلما أمرّ بين بيوت النجع الواطئة، والشوارع التي تتلوى كالأفاعي، والوجوه المتجهمة التي تسبني في ذهابي ومجيئي، أعجِّل قراري بالرحيل من النجع.

أعرف أن عمي هو العقبة الكبرى في طريقي. ما بقي من عقبات يسهل تذليلها. لذا قبضت على أصابع كفي، ورفعت يدي إلى الهواء أشد من عزيمتي: "لابد من إقناع عمي".

ظللت أفتش عنه في كل مكان.. "بالتأكيد سيكون هناك في مكانه المفضل".. قلت ذلك بصوت هامس، وأنا أخطو سريعًا إلى ذلك المكان الفسيح المحاط بأشجار الموز وأشجار فواكه أخرى بالقرب من بيت العزلة لعمي. صدق حَدْسي، ووجدته جالسًا على الدكة المفروشة بفرش من فرو خروف، يشد خرطوم شيشته التي لا تفارق فمه إلا قليلا. على مقربة منه الكلب الأسود يتدلى لسانه، ويفرد قائميه الأماميين بين

الحشائش. يبدو أنه استساغ الظل ورائحة أشجار الفواكه. هو أيضا لا يفارق عمي أيضا أينما يسير.

اقتربت منه، قبل أن أقف خلفه. فكرت للحظة من أين أبدأ كلامي. كأنه رآني من ظهره، ناداني: تعال.

تحركت بسرعة، وجلست إلى جواره. كانت سحائب الدخان ترتفع في السماء. رائحة الشيشة تخنقني. رمى عمي بالخرطوم إلى جواره. افترَ فمه عن ابتسامة لا تغادره لمَّا يحدثني، سألني:

- ماذا تريد؟

تلعثمت، فربت على كتفي يخفف من توتري، قال لي بصوت خفيض: "يبدو أن الموضوع صعب".

شجَّعني قائلا:

- تكلَّم يا دكتور.

راقت لي جملته، ووجدت فيها مفتاحًا للساني المتعثر. بالكاد استجمعت الكلمات في حلقي، ورحت أدفعها دفعا لتخرج من فمي:

- أريد أن أدرس في جامعة **ق**.

أطرق عمي صامتا، قبل أن يضرب بيده على فخذه. جاء الكلب مندفعًا إليه يظنه يناديه. حدَّقت في الكلب، قبل أن يسألني عمي:

- ولم جامعة **ق** بالذات؟

أخذت نفسًا عميقًا أفكر بإجابة أخفي بها حقيقة ما يدور بعقلي، أجبته:

- جامعة مرموقة ولها اسمها.

ثبَّت عينيه عليَّ كأنه لا يصدق ما أقول، قبل أن يتكلم بكل هدوء:

- قل الحقيقة يا **منتصر**.

نكَّستُ رأسي خجلًا، وقلت له بصوت خفيض:

- أريد أن أعيش حياة جديدة أرى فيها الدنيا.

احتد عمي عليّ:

- تملك كل ما يحلم به البشر. تعيش في بيت كالقصر.. لديك أرض لا حد لها.. بهائم لا تعد ولا تحصى.. عندك حصان عربي نادر.. بإشارة من إصبعك الصغير يأتيك لبن العصفور.. الدنيا كلها تحت قدميك.

تعرف تماما أني لا أهتم بالأرض ولا البهائم ولا بكل مال أبي.. بل كل ذلك يدعوني إلى الفرار. تعرف أن حياتي هنا كالموت.

جاءني صوت عمي، وأنا أحدث نفسي:

- كل ذلك وتبحث عن دنيا جديدة.

لزمت الصمت، فأردف قائلا:

- أنت تريد أن تهرب يا **منتصر**.. هذه هي الحقيقة.

لم أتفاجئ بكلام عمي؛ فأنا بالنسبة له كالكتاب المفتوح. عجزت أن أرد عليه. عجز لساني عن الكلام كأنني أصابني الخرس. لاحظ عمي شرودي، وغيبتي عنه. وضع يده على شاربه الكث، ومطَّ فمه إلى الأمام، لم يشأ أن يزيد من صراع نفسي، فأخرجني من حيرتي ونوبة أفكاري، قال لي بصوت هادئ:

- موافق.

رميت نفسي عليه، وعانقته.

بعد لحظات تصنَّعت المكر، فقلت له:

- هل تظن أن أبي سيوافق؟

انفرجت شفتا عمي عن ابتسامة ذات مغزى كأنه يقول لي: "تدَّعي الذكاء علي يا ابن أخي. تعرف تماما أنك بموافقتي حظيت بالموافقة، ولكنك تريد أن تسمعها لحاجة في صدرك"

صمت عمي ولم يجبني، كأنَّه يعيد الكرة لي بدهائه، قائلا في نفسه:

- لن تنال يا **منتصر** ما تريد. سأشعل حيرتك من جديد، لأقلب اللعبة عليك.

بقيت العقبة الثانية في طريقي. أمي. ستكون العقبة التي سأواجه فيها أحاسيسها. أيضا هي تعرف ما يراودني من أحاسيس مشتتة، وتيه لا ينتهي في نجع كل الوجوه فيه تقهرني وتمقتني إلا من رحم ربي.

وجوه غابرة تحملني كل آثام الدنيا وما فيها. كأنني أنا الخطيئة الكبرى في حياتهم. لا يعرفون أنني أعاني مثلما يعانون. حاولت مليًّا أن أدافع عن نفسي، لكني فشلت. الآن عليّ أن أفر منهم ومن نفسي قبلا. لا بد أن أفر. سأحاول إقناعها بذلك. لكن هل ستوافق؟

ذهبت إليها، وأخبرتها بما يدور في عقلي. ولَّت وجهها عنِّي أول ما أخبرتها، قالت بصوت حزين:

- تريد أن تفارقني يا **منتصر**.

قبَّلت رأسها، وقلت لها:

- لا يمكن ذلك أبدا.

رحتُ أشرح لها أحاول أن أستميل عطفها، قلت لها إن جامعة **ق** من أفضل الجامعات وأكبرها، ستصنع لي اسما أكبر.

أصرت، وقالت:

- مهما يكن لا أريدك أن تغيب عني.
- لم لا تأتين معي؟
- أموت هنا ولا أذهب إلى مكان آخر.

أي جنون ذلك الذي أنا فيه. تكره أمي البيت مثلما لا تكره شيئا في حياتها، ولا تريد أن تغادره. لا أصدق قولها إن بقاءها عهد قديم قطعته مع أبيها والناس، لتظل كالشوكة في ظهر الضبع، فإما أن يستجيب ويعيد الحقوق المسلوبة أو تنغص عليه حياته.

لا أصدق كلامها. لا بد أن هناك سبب آخر لا أعرفه. لا يهم كل ذلك الآن.. الآن عليّ إقناعها.. ظللت أحاول باستماتة، قائلا لنفسي: "حتما سأنجح"، ونجحت...

***

وماذا بعد الموت غير الموت

عدت من النجع في حالة إفراط شديدة من يأس تجعلني أرغب في الموت كل دقيقة. أبصر النهار كغبشة ظلام كثيفة، فما بالي بليل مدلهم لا ينتهي.. أرجع إلى شقتي بعد تجوال طويل في الشوارع الواسعة والضيقة، المضاءة والمعتمة، والتي أسير فيها هائما كالتائه. بل أنا بالفعل تائه من شارع إلى شارع، أسير بلا عقل، أحدِّق في واجهات المحلات الزجاجية وأنوارها التي تلمع، كل ما هو خلف الزجاج، السيارات المسرعة، أصوات الناس، ووجهوهم التي لا أعرفها، ضجيجهم، شجارهم، النساء والأطفال.

كنت بحاجة لمن يأتي ويقف بجانبي يخبرني أن أمي عادت إلى الحياة، وحين لا أجد غير الصمت، أعود إلى الشقة مهزوما، أحاول أن أحصي ما فعلته طوال سيري، فلا أقبض على شيء وكأنني كنت أسير في الفراغ.. أرتمي فوق السرير منهكًا، أفرغ لكوابيس اليقظة، قبل كوابيس مناماتي، تخرج الخيالات من رأسي، وتستقر بأشخاصها في حجرتي. أضع كفيَّ فوق عينيَّ، عسى ألا أبصرها، لكن هيهات هيهات، وهم في

عقلي ووجداني مستقرين، ولكن إن نسيت أو استطعت الفرار من ذلك كله، فكيف أنسى فاجعة موت أمي!

أخرج صورتها من جيبي، أتأملها طويلا، فتهزمني دموعي وأظل أبكي، وحين تفرغ دموعي، أعيد الصورة إلى جيبي، وأخرج إلى الصالة، تستقبلني صورة جدي، أكظم غيظي، بجوارها صورة أبي، أود في قرارة نفسي لو حطمتها. أتراجع بضيق، وإحساس بالفشل حتى مع مجرد صورة. أتنهد بأسى، أعطيها ظهري، أجلس على الكنبة، أنتظر بشغف مجيء **علاء وممدوح**، يقضيان معظم الوقت. لو أمكن لي أن يبقيا معي كل الوقت لفعلت. لولاهما لكنت انتحرت. ربما لا تصدق ذلك. أقسم لك أني فكرت في ذلك أكثر من مرة، ولولا بقية إيمان وخوف من الله في صدري لفعلت. ليلة أمس، وبَّخاني بشدة لما أخبرتهما بالهواجس التي تدور في رأسي. قلت لهما بيأس مطرقا رأسي:

- وماذا بعد الموت غير الموت.

لم يصدقا ما يسمعان. قال **علاء** بعصبية شديدة:

ما الذي غيَّرك؟ ولماذا كل هذا اليأس؟! كأنك لا تعرف. أعترض بشدة لما قلت له ذلك.

قال لي محتجا:

- إن الحياة لن تتوقف.. ولا بد أن تستعيد نفسك.

نكَّستُ رأسي، وأشحت بوجهي بعيدا عنه. واجهته مرة أخرى:

- أي حياة تلك التي أستعيدها؟

تدخَّل **ممدوح** لما احتد الكلام بيننا:

- لم لا تأتي وتسهر معنا.. ربما فيها نسيانك وسلواك.

أفلتت الكلمات من فمه، فرمقه **علاء** مستنكرا. لكنني تشبثت بكلامه. تشبثت بها تشبث الغارق بقشة. قالها **ممدوح** ولم يلق لها بالا، يحسبها زلة لسان وعبرت، لا يعرف أن مستقرها أصبح في رأسي. أراد **ممدوح** أن يتراجع. كأنه شعر بالندم على زلة لسانه. لم أدع له الفرصة. حاصرته.

كنت أعرف أن **لعلاء وممدوح** عالمهما الخاص، حيث سهراتهما ونزواتهما بعيدا عني، وكانت هذه نقطة خلاف مؤرقة بيننا تنذر بتصدع جدار صداقتنا القوية. قال **علاء** ممازحًا ذات مرة بخفة دمه المعهودة، لما لمتهما على ذلك الطريق، وتلك الأفعال:

- لك جديتك، ولنا لهونا ومجوننا.

تبصر الأشياء بوجه غير الوجه في لحظات غير اللحظات: لحظات الاعتدال والانقلاب، الفرح والحزن، النصر والهزيمة، لحظات تكون فيها صافي الذهن، لحظات تعكر المزاج. ترى الوجه القبيح جميلًا، والجميل قبيحًا. ترى ما كنت تبغضه بالأمس مألوفًا اليوم إلى قلبك. تمضي في أفعال كنت تستنكرها وقربك منها والموت واحد، لكنك تأتيها وكأن ولدت عليها.. فها أنا أرى أو هكذا ظننت أن في لهوهما ومجونهما لحظة عابرة لروحي، من ضيق النفس إلى رحابة الحياة، تشحذ همتي من جديد، تجلو همومي المتراكمة فوق الصدر كجبال. لم يصدقا كلامي لمَّا قلت موجها كلامي **لممدوح**، وبجدية تامة:

- سأعمل بنصيحتك.. أريد السهر معكما.

نظرا إليّ ببلاهة، يظنان بي الهذر، وما عهدا بي غير الجدة، وكآبة الوجه، حتى حسبا أني لا أضحك أبدًا. نظرت إليهما شزرا، وكررت جملتي بحماسة كبيرة:

- سأنتظركما ليلة الغد، وفي شقتي.

ولما بانت لهما جديتي، همّ **ممدوح** بالكلام، يخبرني أنها زلة لسان عابرة، وأن تلك الأفعال، وإن كانت تليق بحالة الضياع التي هما فيها،

فإنها لا تنفع مع دكتور أمامه مستقبل كبير مثلي، فما كان مني، وبالغضب الراسخ في صدري، إلا أن صرخت فيه:

- لست قاصرًا.. أعرف ما ينفعني ويضرني.

هدَّدتهما إن لم يفعلا، سأفعل ما أريده، بعيدًا عنهما، ولمعرفتهما التامة بتحجُّر رأسي، وعنادي الشديد، استسلما بأسف بادٍ في حدقات عيونهما، لقراري المجنون. كان أكثر الجنون لما طلبت منهما أن تكون السهرة كاملة، وبصحبة النساء.

وها هي الليلة تأتي لأجد نفسي منفردًا بامرأة تجمعني بها حجرة واحدة، بأنفاسها اللاهثة، وشبق الاشتياق لرغبة تعوَّدت عليها، واحترفتها، تفتح ذراعيها لتحتويني، فأفر بوجهي بعيدًا عنها كفأر مذعور.. تهمس في أذني بصوت ماجن:

- أول مرة.

أخفض رأسي، فتحاول بمهارة مدربة عليها أن تجعلني أستسلم ليديها. تتعرى أمامي، ويزداد الهلع في عيني. أرتجف لما أرى لحمها الأبيض متفجرًا من قميصها الأحمر الشفاف، الذي يفضح أكثر مما يداري. أداري عيني، فتبعدهما بغنج، وابتسامة المجون فوق شفتيها:

- مكسوف!

لا تكُف المرأة عن القرب مني، ومحاولة احتوائي رغم طول مراوغاتي لها. أخذت تدور حولي تحاول أن تساعدني. أمسكت (التي شيرت) الذي أرتديه وحاولت أن تخلعه. تشبثت به خوفًا، لكنها لم تهدأ إلا حينما ظفرت بالصيد الثمين، وابتسامة المجون لاتزال ترتسم فوق شفتيها، وراحت بكلتا يديها تخلع ملابسي، أحسبها تخلع همومي، ولما تمكَّنت مني، ووجدت نفسي عاريًا في شارع يبصر فيه حشد كبير من الناس عورتي، يضحكون، وخلف الحشد رأيت أمي، والدموع اللامعة في عينيها، أزحتها بعيدًا بكلتا يديّ حتى أوشك رأسها أن يرتطم بالأرض ويتحطم. نظرت لي بفزع، قبل أن تتبدل نظرتها إلى نظرة أخرى ذات مغزى، لم أفهمها، إلا لما قالت بسخرية شديدة:

- أشباه الرجال!

دفنت رأسي في السرير، ولم أرد عليها.

نهضت، ولملمت ملابسها. ارتدتها، ثم خرجت تزمَ شفتيها. وجدت **ممدوح** ممددًا في الصالة برفقة **علاء** يداعبان امرأة أخرى جاءت برفقتها. سمعت المرأة تقول بسخرية:

- يبدو أن صاحبكما ليس رجلًا..

ثم وجهت كلامها لصاحبتها دون خجل:

- يبدو أن حظك أفضل مني، إنه لم يقربني.

سمعت **ممدوح** يصيح فيها أن تكف عن الكلام، ولمَّا لم تتوقف، هبَّ فيها صارخًا:

- اخرسي! لك حسابك.. أخرجي من سكات.

تهادى إليّ صوتها تغمغم:

- أي حساب يا حسرة.. لا أريد حسابًا من نساء مثلي.

كأنِّي **بممدوح** جن جنونه، وصوته يخترق أذني، أسمعه يكرر عليها إن لم تصمت سيقتلها، يطردهما بعد ذلك معا. أخيرا أسمع صوت الباب ينغلق وراءهما، ووقع خطوات **ممدوح وعلاء** تقتربان من حجرتي.

انفجرت من البكاء لما دخلا الحجرة، جلسا بجواري على حافة السرير كنت منكفئًا على بطني ولم أتوقف عن البكاء كامرأة ثكلى. قال **ممدوح** بنبرة حزن:

- لِمَ تعذب نفسك؟

أضاف بندم شديد:

- هو خطأي منذ البداية.. كان يجب ألَّا أورطك معنا.

اعتدلت، لمَّا أحسست بتأنيب ضميره الشديد، وتحميل نفسه ما لا ذنب له فيه ولا طاقة له به، نظرت إليه والدموع تبلل خدي، أحاول أن أخفف عنه:

- لا ذنب لك.. هي كانت رغبتي.

كانت محاولة يائسة مني للهروب من نفسي، أبحث فيها عن امرأة.. أي امرأة تعوِّضني المرأة الوحيدة في حياتي. لكن لحظة أن انكبّبت على صدرها ألتهم ثديها أسترجع ذكريات الصدر القديم، اكتشفت أن ذاك كان صدر آخر، لا يمكن لأي صدر أن يعوض الحنان فيه. وحده القادر على انتشالي من لحظات يأسي وهزيمتي، ضعفي وهواني وقت أن أمرّغ رأسي فيه، فيحتويني، ويعيدني إلى نفسي من نفسي، أواجه كل المصاعب.

ومنذ تلك الليلة لم تدخل امرأة أو فتاة أخرى الشقة حتى **ممدوح وعلاء** كفا عن علاقتهما النسائية، اكتفى ثلاثتنا بالسهر في شرب البيرة والسجائر المحشوة بالحشيش.

***

وحدة قاتلة

لا شيء تغيَّر.. تمضي الحياة رتيبة وبطيئة كأنها موت يُسمى حياة.. يتركني **علاء وممدوح** قرب الفجر، وأبقى بعد فراقهما وحيدًا أسيرًا للجدران الصامتة. أغلقت كل نوافذ الشقة، ولا أضيء لمبة واحدة. لا أفارقها أبدا، صرت سجينا لجدرانها وظلامها الوحشي في تضرع طويل، وبكاء لا ينقطع. لم أعد أخرج أو أتسكع في الشوارع. صارت الشقة قبرا أبديا لي.

شهر مضى منذ أن ماتت أمي كأنه أعوام طويلة، أشعر أن المشيب جاءني على حين غفلة، فضربني في صميم جسدي، وصرت لضربته كهلًا. جسدي ضعيف، وريقي له طعم المُر، بل هو أمرّ من المُر.

انقطعت عن الذهاب إلى مستشفى **ك** الجامعي، بعد أن عينت فيه. حتى المستشفى الخاص الذي جعلني فيه الدكتور **حلمي** نائبًا له لم أذهب إليها أيضًا.

اتصل بي الدكتور **حلمي** عدة مرات دون جدوى. كانت أول مكالمة جرت عند رجوعي من النجع، مكالمة تعزية ومواساة قبل أن ينهيها بإشارة منه بضرورة عودتي، فاكتفيت بوعدي له أنني سأعود.

ولما مرَّ أسبوع آخر دون جديد، عاود اتصاله عدة مرات، في كل مرة كنت أنظر إلى شاشة هاتفي المحمول بلا اكتراث، أكتفي بزمّ شفتي بضيق شديد، ثم أضع الهاتف على المنضدة، أو أرمي به بعيدًا حتى يتوقف عن الرنين.

ولمَّا لم يجد مني ردًا أرسل لي عدة رسائل. كانت في البدء رسائل أبوية، تواسيني حينًا، وتذكّرني بمستقبلي حينًا آخر، ولما لم يجد مني اهتماما تبدلت إلى رسائل تحذير وتهديد. أخبرني أن إجراءات فصلي باتت قريبة بسبب انقطاعي.

بعد أيام قليلة استلم **مهران** الإنذار، أسرع وطرق الباب. لم يكن يعرف ما هو الإنذار ولا ماذا يعني، لكنه بحدسه فهم من كلمات الرجل المقتضبة وضرورة تسليمه لي شخصيا أن وراءه مصيبة.

يحب **مهران** المصائب، ويجد فيها فرحته. أخذ يطرق باب الشقة، ولم يستسلم حتَّى لمَّا تأخرت في الخروج إليه متكاسلًا بعينين ناعستين.

وجدته يقف أمامي وفمه مفتوحا. أعلم يقينا إن رأيته أمامي، فلا أنتظر أخبارا سعيدة.

مهران من أبناء عمومتي. جاء من النجع بعد أن أرسله أبي، ليعمل بوابا للعمارة، بعد إلحاح شديد منه أن يجد له عملًا يسترزق به، فوجدها أبي فرصة ليكون عينًا عليّ ينقل له الأخبار أولًا بأول، والتي برع فيها **مهران** كأمهر جاسوس.

شكّكت فيه في بادئ الأمر، قبل أن أصطنع خدعة متقنة أوقعته فيها، وتأكدت بها أنه هو الذي ينقل الأخبار لأبي. ساومته بعدها، حتى أتقي_شره، وأنقل ما أرغب فيه من أخبار، منحته مبلغًا سخيًّا من المال، ووعدته بمبلغ آخر مع كل خبر أريد توصيله وفقًا لما أريد. أضحك في نفسي كلما تذكرت، وأقول ساخرا:

- بثمن بخس باع الكلب أبي.

لكن يبدو أن حياة **ق** الجديدة، واحتكاك **مهران** بالناس في شوارعها، جعلت منه (فهلوي)، وصار هو الذي يبتزني في صعودي ونزولي. أقسم أنني في كل مرة أراه يراودني إحساس أن ألف يدي حول رقبته حتى الموت.

وكانت الطامة الكبرى لمَّا وقعت لي أكثر من حادثة سيئة في كل مرة أصادف وجوده على الكرسي في خروجي أو صعودي إلى الشقة، جعلتني أتطيَّر وينقبض صدري.

يتحرك الخوف القديم في قلبي من سماع صوت الغربان والبوم التي ما إن أسمع صوتها، حتى أدرك أن يومي أغبر ولن يمر على خير. لطالما قال له عمي يحاول أن يزيل ذلك الخوف من قلبي وعقلي:

- قدرك هو المكتوب.. لن تغيِّره البوم ولا الغربان.

يذكرني بحديث الرسول ﷺ: **(لا عدوى ولا طيرة).**

ولكن ما إن تعاود الغربان تنعق بصوتها على أشجار الصفصاف المحيطة بالبيت، حتى أجد نفسي أغرق في دوَّامات الخوف، وأهمس في نفسي بهلع شديد: "اللهم اجعله خيرًا!"

هببت في وجهه صارخًا:

- ماذا تريد يا وجه البوم؟ أيقظتني.

أعطاني الإنذار كأنه يرمي جمرة من يده. أمسكته، ومررت عيني بسرعة على ما يحتويه. قلت بنبرة ساخرة وبصوت مسموع:

- إنذار بالفصل.

ظلَّ **مهران** واقفًا منصتًا محدِّقًا في، قبل أن يدفعه الفضول، وسألني:

- من أين ستفصل يا دكتور؟

لم أرد عليه، فظلَّ يكرر السؤال بآلية كأنه فقد التحكم في لسانه. زعقت فيه، وأمرته أن ينصرف من أمامي حالًا. ببلادة استدار وهو يصفِّق على يديه، ولم يتوقف عن ترديد جملة واحدة كببغاء، وهو ينزل السلالم:

- الدكتور سيفصل.

أغلقت الباب وعدت لنومي. يبدو أن **مهران** أعجبته كلمة الفصل، وراح يرددها في وجه كل من يقابله. في المساء جاءني **علاء وممدوح**، أخبراني أن **مهران** أنزل في قلبيهما الرعب لمَّا كانا يقفان أمام باب المصعد ينتظرانه، فاجأهما بظهوره من الظلام مرة واحدة وعلى حين غفلة كأنه انشق من العدم، وزاد من فزعهما لما قال لهما:

- يا أستاذ **علاء**.. يا أستاذ **ممدوح**. الدكتور **منتصر** سيفصل.

طفقا يحدِّقان فيه في ريب لا يفهمان.. قصَّ عليهما ما جرى، فتركا المصعد، وصعدا السلالم.

واجهاني، وأنكرا عليّ أنني نقضت وعدي معهما. في كل ليلة يطلبان مني أن أرجع إلى عملي. أعدهما بأن أفعل ذلك صباحا. أخر مرة كانت منذ ليلتين، أقسمت لهما أني سأفعل، كنت أراوغهما، وحسب.

الآن أنظر لهما بشرود، قلت بيأس شديد:

- فلأُفصل.. ماذا سيحدث إذا فُصلت؟.

لم يصدَّقا ما يسمعان، وظلّا لفترة صامتين كأنَّ على رأسيهما الطير، قبل أن يقول **علاء** بعصبية شديدة:

- لا أصدق ما تقول.. هل ستوقف كل حياتك حتى تنتهي تماما؟

تحركت بسرعة وأخذت أقفز في الهواء كبهلوان، قبل أن أسكن على الكرسي مهزومًا، قلت لهما مطرقًا رأسي إلى الأرض:

- حياتي أصبحت بلا معنى ولا قيمة. كل شيء بعد موت أمي لا يهم.

جثا **ممدوح** على ركبتيه مواجهًا لي. حدَّق في بغضب، وقال:

- لا يمكن أن نسكت.

هددني بعمي. تجهم وجهي، ونظرت إليهما باتساع عينيّ، قلت له متوعدا:

- هذا فراق بيني وبينك إن فعلت.

***

في مساء اليوم التالي فوجئت بعمي يقف أمامي. تأكدت أن **ممدوح** نفذ تهديده واتصل به. كنت ممددا على كنبة في الصالة لما سمعت صوته عاليًا، يزعق فيَّ:

- تخدعني كل ذلك الوقت يا **منتصر**.

لم أتنبه لفتحه باب الشقة، ودخوله إليها. فوجئت بصوته الجهوري، فانتفضت مذعورا. حاولت أن أدفع بنفسي من على الكنبة هربًا أحاول الاختباء في أي مكان كأني فأر صغير وجد نفسه في مكان محكم الإغلاق فجأة أمام قط جائع يبرز أنيابه، ولما يجد مفرا استسلم مرغمًا.

صرخ عمي في وجهي مكررًا كلامه بحدة أكثر:

- تخدعني يا **منتصر** طوال الوقت وتخبرني بأنَّك عُدت لعملك وحياتك.. وثقت فيك ولم أجيء إليك.

امتقع وجهي، وظللت مكاني أرتعش لا أدري بما أرد عليه. أعرف غضبه وثورته. أعرف كيف يكون كالريح لما يكون هائجًا. أعرف لطمة يده القوية. تحسست خدي لما تذكرت.

رجعت إلى الدار بوجه مقرور وعينين مملوءتين بالدموع. كان أول من قابلني عمي عند مدخل الحديقة. كنت قبلها محاصرًا بالتلاميذ في المدرسة. أصابعهم تشير نحوي باتهام لا أعرفه. أحاول جاهدًا الفرار منهم. تنزل أصواتهم على أذني كسياط من نار:

- يا سارق.. يا سارق.

قلت لعمي:

- لن أبقى يومًا في المدرسة. واساني، وحاول أن يهدئ من روعي.

ولمَّا صعدت إلى أمي في حجرتها، وجدتها تضع ملابسي في الدولاب. وقفت خلفها، ولم أتكلم. خشيت أن أتكلم. هاجس ما دائما يجعلني أتردد في مصارحتها بالأشياء التي أفعلها مُكرهًا وهي ترغبها. ربما يكون سببه الدموع التي تغرق عينيها على الدوام. لكنني في تلك المرة كان لديَّ إصرار شديد أن أقول لها ما يدور في رأسي، كرهي للمدرسة والأولاد وكل الناس. يبدو أنها رأتني في مرآة الدولاب، وشعرت

بترددي. استدارت، وتقدمت نحوي. بادرتني بابتسامة كأنها تحاول أن تزيح خوفي. هزت رأسها، وقالت لي: "تكلَّم".

بلعت ريقي، فوضعت يدها حول عنقي، وضمتني إليها ضمًّا خفيفًا، وقالت تخفف عني:

- يبدو أنه موضوع صعب.

أستجمع قوتي، وخرج الكلام مني بصعوبة وبصوت يكاد لا يُسمع:

- سأترك المدرسة.. لن أذهب إليها مرة أخرى.

أزاحتني أمي عنها، وحمَّرت لي عينيها، لكنني كررت كلامي وبإصرار شديد هذه المرة:

- سأترك المدرسة.

زعقت فيَّ:

- لا أريد أن أسمع مثل هذا الكلام.

ارتفع صوتي لأول مرة في وجهها، وقلت:

- هذا قراري، ولن أتراجع عنه.

كأنها لم تصدِّق ما تسمع. ظلت لبرهة ساكنة، ثم أمسكت سترتي، وجذبتني إليها، فدفعت يدها. تراجعت أمي إلى الوراء في ذهول، لا تصدق ما فعلت. ارتمت على السرير تبكي. أخذت تنحب بصوت عال. حاولت يائسًا ملاطفتها ومداعبتها اعتذارًا لها. أعرضت عني، وباعدتني عنها.

عرف عمي.. فهي لا تخفي عنه شيئًا يخصُّني.

أمسكني عمي من يدي، وجرَّني وراءه. لا أعرف إلى أين يقودني. بعد قليل اكتشفت الوجه الآخر له. لطمني على خدي، وانبجست الدماء من بين شفتي، لم يبال، أرقدني على الأرض، وأوثق قدميَّ. صرخت لما عرفت بما سيواجهني. عبثًا ظللت أصرخ. لا نجاة من بين يديه في تلك الحجرة المظلمة النائية عن البيت الكبير.. حتى وإن سمع صراخي أحد، من يجرؤ على الاقتراب من عمي؟

استسلمت لمصيري المحتوم، حتى صرخت عصاه الرفيعة فوق قدمي.

أسبوع كامل لم أستطع السير فوقها، وأمي تنظر لي بإشفاق تداريه لما أنظر إليها، ولأول مرة أعرف عمي كأشد ما يكون.

***

يد مرتعشة تمسك بالمشرط

في اليوم التالي سأكون خارج أسوار الشقة، أحمل هزيمتي فوق جسدي المنهك، وأمضي إلى مستشفى **ك**.

لم يأخذ الأمر كثيرًا مع عمي. كلمة واحدة منه كانت كفيلة بتغيير موقفي، وجعلتني أبكي.. قال لي وهو ينظر في عيني:

- هل تذكر العهد الذي قطعته مع أمك قبل موتها؟

حملقت في صورتها التي علقتها في الجدار المواجه لي في الصالة، وقلت له:

- نعم! أتذكر.

دخلت عليها وهي تلتقط آخر أنفاسها في الحياة. رفع الطبيب الرباط عن وجهها بعد أن صارت لا حاجة لها به. كان وجها مستكينا وواهنا،

مليئا بالندوب والكدمات، وعيناها تفيضان بحنان بالغ، جاهدت أن تتحدث، فملت عليها وطلبت منها أن تستريح. يبدو أن الموت الذي بات قريبا منحها قوة إضافية، فحرّكت لسانها، ونادتني. جثوت على ركبتي، ونظرت إليها. حملتني وصيتها، ثم أضافت بصعوبة تسألني إن كنت أتذكر وعدي القديم الذي عاهدتها عليه. أومأت برأسي موافقا، وكلماتها لا تفارق رأسي. ظلت وستظل معي على الدوام.

"حياة المرء رحلة قصيرة.. هي أيضًا ليست ملكًا له. ليس ذنب المرء أن يرث إرثًا لا يد له فيه. لكن الذنب هو أن نستسلم لذلك الإرث. نجعله قدرنا المحتوم. السعادة يا ولدي أن ترى الفرحة في عيون الناس. أن ترد عنهم ظلمهم ولو بكلمة.. هذا هو طريقك إلى النجاة.. طريقك الذي تهتدي به من ذلك الظلام الذي تتخبط فيه".

- إياك يا ولدي.. أن تنسى كلامي. أن تنسى ذلك الوعد.

هززت رأسي، فتحشرج صوتها. طلبت ثانية منها أن تتوقف راحة لها، لكنها أصرت:

- موتي يا ولدي هو ألا تكمل الطريق الذي اتفقنا عليه.

حركت يدها، وانقبضت ملامحها، ونطقت كلمتها الأخيرة:

"عهد".

أغمضت عينيها، وأمنت على قولها، وريح الحزن تجتاحني: "عهد".

في مستشفى **ك**، ولا أعلم هل هو حظي السعيد أم العاثر كان أول من قابلني الدكتور **حلمي**؟ لم يمد يده إليه ليصافحني، ولم يوَّبخني أو يعنِّفني أيضا. اكتفى بنظرة حادة من عينيه، ثم واصل سيره سريعًا نحو حجرة العمليات. كانت تتبعه مجموعة من طلبة السنة الأخيرة بكلية الطب.

أحسست بالضيق لتجاهله لي. هممت بالانصراف، لولا أن لحقت بي الممرضة، بادرتني قائلة:

- الدكتور **حلمي** يريدك وبسرعة

هناك في حجرة العمليات سيفاجئني الدكتور **حلمي**.

***

سيظل الدكتور **حلمي** نقطة فارقة في حياتي، ربما لولاه لتغيَّر الكثير في مسار حياتي. لاتزال ذكريات أولى أيامي في الجامعة لا تبارح عقلي.

سافر معي عمي إلى **ق**، وتركني وحدي أكتشف طريقي داخل الجامعة. دخلت من البوابة الكبيرة، ووقعت عيناي أول ما وطئت قدمي

أرضها على القبة الكبيرة كقبة **مسجد سيدي الشيخ الكبير**. شدَّني طوفان الطلاب المتنوع من البنين والبنات في الساحة الواسعة. أبهرني تنوع الملابس التي يرتدونها. أذهلتني سيقان البنات العارية وتنوراتهن القصيرة. حتى من ترتدي بنطلونا كان ضيقًا.. ضيقا جدًا.. حدَّقت في المساحيق الكثيفة التي يضعنها على وجوههن.

تسألني كيف لشاب غني مثلي، الأول على محافظتي، ألَّا يعرف ذلك مسبقًا. ألم أقل لكم أنني رغم الغنى أفقر الناس. ورغم أنني أملك كل متع الدنيا إلا أنني أزهدهم فيها مرغمًا أو مخيَّرًا. لا أكاد أفارق النجع إلا لذهابي إلى المدرسة، وغير ذلك لا يسمح أبي. حياة صارمة مليئة بالتهديد والوعيد، وسجن كبير. لم يكن ذنبي إن أخوتي لا هم إلا الطين والزرع والقلع والحصاد. لست مثلهم، ولن أكون أبدا مثلهم. حاولت مع عمي مرارا أن يساعدني أن أخرج إلى العالم الرحب، في كل مرة كان يكتفي بإيماءة من رأسه، ووعد أن يأخذني معه. فعلها بعد ذلك مرة واحدة أخذني فيها إلى **ق**، ومرات قليلة قبلها زرنا فيها المحافظة، ومولد سيدي الشيخ الزاهد. لم أفهم أبدا سر ذلك السجن الذي يحاصرني به أبي، وحين واجهت عمي أقسم لي أن أبي يخشى عليّ.

أخذت أحدِّق في الطلبة والطالبات معجبًا كأني سآكلهم بعيني.. لكن ذلك لم يدم طويلًا. اصطدمت بنظرة الطلبة وهي ترمقني بسخرية

وكأنني كائن غريب سقط عليهم من كوكب آخر. راجعت نفسي، وجدت أنِّي أرتدي أرقى الملابس وأغلاها، أحمل معطفي الأبيض فوق ذراعي. ربما تكون هي لهجتي. ربما سبب آخر. ظللت وحيدًا بينهم بلا صاحب ولا رفيق. أدخل المدرج، أجلس وحدي فيه. هناك في المدرج لم أفلت من تعليقاتهم الساخرة، ولا أدري لِمَ.

أسبوعان كاملان مضيا ولا شيء تغير. زاد من غليان الغضب في نفسي لمَّا كنت جالسًا فوق الحشائش أسفل شجرة في باحة الجامعة. مر أمامي بعض الطلبة أعرف وجوههم. هم من زملائي في الفرقة التي أدرس فيها. وقفوا قريبين مني. علَّق أحدهم ساخرا، وهو يقلد حمارا يلتقط الحشائش:

- يبدو أن صاحبنا لم ينس الحقل الذي جاء منه.

أوشكت في تلك اللحظة أن أنقضَّ عليه، لولا يد أمسكت بي. التفتُّ فإذا به **علاء** الذي تعرَّفت عليه لاحقًا. قال يهدئني:

- لا تشغل بالك بهم.

لكن في قاعة المحاضرات لم أستطع منع نفسي، دخلت كعادتي قبل كل الطلبة. جلست في طرف المدرج. جاء نفس الطلبة وجلسوا عن يميني. بدأت إحدى الطالبات بالكلام، تبعها الطلبة ساخرين.

وقفت وأمسكت بياقة أقربهم. حاول الآخرون منعي، لكني كنت خارج حدود السيطرة. أفلتت قبضة من يدي كانت قوية ومركزة، وكانت كافية لإحداث جرح كبير في وجهه، أو على الأدق عاهة، تفجَّر الدم كنافورة صغيرة. في نفس اللحظة دخل الدكتور **حلمي**. استشاط غضبًا لمَّا رأى ما يحدث في المدرج من هرج ومرج. هدد متوعدًا بفصلنا من الجامعة، وزاد إصرارًا لمَّا رأى الدماء الغزيرة تتفجر من وجه الطالب. بعد قليل جاءت الإسعاف وأخذت الطالب. لم يتوقف الأمر عند ذلك، قُبض عليّ، وتم عرضي على النيابة، وأصبحت مهددًا بالسجن.

في الزنزانة الضيقة عرفت كيف يكون القبر، وكيف يكون الموت وأنت حي. قال لي أحد النزلاء في الزنزانة بكل برود:

- هذه جناية.. ستُسجن ثلاث سنوات على الأقل.

يبدو أنه عتيد في الإجرام، وملم بكل مواد القانون، مدَّ شفتيه، وأضاف بكل ثقة:

- ولو صارت عاهة مستديمة قد تصل مدة الحبس خمس سنوات.

قهقه بعدها كأنه يتشفى، وقال وهو يضع يديه حول عنقي:

- لا تقلق ستعتاد على السجن.

كنت مقرفصًا على الأرض، والزنزانة مظلمة وخانقة. تلمست الأرض، وبحثت عن مكان آخر أبتعد فيه عنه. فكرت بيأس في الورطة التي وضعت فيها نفسي، ولكن فجأة كل شيء تغيَّر. لا أعلم كيف حدث ذلك. وجدت عمي برفقة الدكتور **حلمي**.. ما الذي جمع هذا على ذاك؟ عرفت فيما بعد أن الدكتور **حلمي** من محافظتي، وكان هذا يكفي لعمي. لم أسأل عن التفاصيل، وأسباب خروجي. يكفي أني خرجت من حفرة القبر، ومن بين أولئك المجرمين العتاة.

في الجامعة، اكتشفت أن قرار فصلي كان قريبًا، أو تم توقيعه بالفعل.. أيضًا تدَّخل الدكتور **حلمي**، وتم إلغاء قرار الفصل. كان الأغرب لي هو تقرب صاحبة الحادثة مني.. كيف ذلك؟ لم تدم الحيرة في رأسي طويلا بعد أن سرت الهمسات بين الطلبة عن غنى أبي وثروته الطائلة، نفوذه الكبير، واسم العائلة.

مرة أخرى ما فررت منه يطاردني. ومرة أخرى يظهر أبي.

أول محاضرة بعد رجوعي، طلب مني الدكتور **حلمي** أن أجلس قريبًا منه. كلمات قليلة منه، زادت من قرب الزملاء مني، وصار كل منهم يبحث عن إرضائي.

***

في حجرة العمليات، يقف الدكتور **حلمي**، مرتديا معطفًا أبيض بين الطلبة.. أربعة طلاب من طلبة الامتياز، يرتدون هم أيضا معاطف بيضاء، ويصغون لكل ملاحظة يبديها الدكتور **حلمي** باهتمام. يقفون جميعًا في مواجهة مريض يرقد على السرير، نائمًا مغمض العينين. أظنه من تأثير البنج. المريض رجل كبير يبدو أنه تجاوز السبعين عاما. لحيته البيضاء تتدلى حتى منتصف صدره، يرتدي قميصًا أزرق (خاص بالعمليات)، وبجانبه الأجهزة والمعدات والفوط الخاصة بإجراء العملية.

أشار لي الدكتور **حلمي** أن أقترب منه. تقدمت، ووقفت بين الطلبة. لم ينتظر الدكتور **حلمي**، ومدَّ يده نحوي، ناولني المشرط. أمسكت به، ولا أعرف لماذا أعطاه لي. للحظات أخذ يشرح لي حالة المريض:

- حالته حرجة، ويحتاج لمهارة فائقة لاستئصال الورم.

نظرت إليه فزعًا، وكل ما يدور في عقلي من هواجس منذ دخولي لحجرة العمليات يقترب من اليقين.

- المريض مصاب بالقلب وارتفاع ضغط الدم.. السرعة والدقة واجبة.

كنت أشك أنه يتعمد أن يزيد من خطورة الحالة حتى ينزل الرهب في صدري، أو ربما حتى أكون حريصا. حانت اللحظة، والتي بددت كل الهواجس، وجعلتها حقيقة. ثبَّت الدكتور **حلمي** إطار زجاج نظارته فوق عينيه، ثم تحدَّث بصوت خشبي:

- سنتابع الدكتور **منتصر** وهو يجري العملية.

سقطت كلماته كجليد فوق رأسي. ارتعبت وسقط المشرط من يدي. أول مرة يفعلها معي، ويطلب مني أن أجري عملية، وأكثر من ذلك خطيرة حرجة. في كل مرة يقول لي: "لا تقلق سيأتي اليوم الذي تفعلها". لكنه الآن وفي هذه اللحظة بالذات، التي يحلم بها كل طبيب، سقط المشرط من يدي. ليس هذا فحسب. أحسست أنني مقبل على السقوط في حفرة عميقة. داهمت جسدي رعشة مبهمة، وشعرت أني خائف.. خائف جدا. حدجني الدكتور **حلمي** بنظرة غاضبة، والتفت الطلبة نحوي لا يعرفون سببًا لما فعلت. وحدي كنت أشعر بالمتاهة والضياع. "أنَّى لي بعملية خطيرة مثل هذه؟" قلت في نفسي وقلبي يدق بعنف حتى حسبت أنها تقرع وسط الصمت.

تداركت الموقف بسرعة، واعتذرت للدكتور **حلمي**، ورجوته أن يسمح لي أن أغادر الحجرة.. زادت الحيرة في عيون الطلبة وكأنهم يتساءلون:

- ماذا يفعل ذلك المجنون؟

الجنون هو أن أبقى بينهم هنا. انحنيت، والتقطتُّ المشرط من على الأرض، ودون كلمة أخرى غادرت الحجرة، وصوت الدكتور **حلمي** يلاحقني بضرورة العودة.

***

وعادت أمي...

تتباعد الذكريات في رأسي يوما بعد يوم إلا ذكرى موت أمي تبقى أمامي حاضرة، مهما طالت الأيام أو بعدت. لا يفارقني طيفها أينما أضع قدمي، تكون معي، في يقظتي أو في نومي. تعقدت حياتي بعد موتها، ومع ذلك صارت خواء لا تفاصيل كثيرة فيها. نوم ويقظة، شقة مسكونة بالصمت ومستشفى تضج بالعويل وأنات المرضى، **علاء وممدوح** ولا شيء آخر. وحدة طويلة، وفراق أبدي. في وحدتي اكتشفت أشياء، وافتقدت أشياء أكثر. غابت عني كثير من التفاصيل التي كانت تنمو في الخارج وتكبر وتتسع، ولم أتنبه إليها. غاب عني دعوات التظاهر التي كان ينادي بها الشباب على صفحات التواصل الاجتماعي. منذ ثلاثة أيام تهادى إليَ صوت فرقعات وأصوات صرخات مكتومة، لكنني لم أبال. لم أفهم معنى كلمة "المظاهرات" التي تناهت إلى أذني ثلاث مرات طيلة الأيام الثلاث الماضية، ولم أهتم بشأنها. لكن ذلك الغياب ظهر لي أكثر في بالأمس. بدت لي المدينة مختلفة ليس

كما اعتدتها وألفتها. كأن النزيف أصابها فترك الشوارع والأرصفة شبه خالية من الناس والباعة الجائلين الذين يفترشونها بمعروضاتهم وبضاعتهم المختلفة: ملابس من كل الأصناف، رابطات عنق، وحقائب جلدية، وكتب وروايات، لا يكلُّون ولا تهدأ لهم حركة في النداء، وحث الناس على الشراء منهم.

كل ذلك الضجيج اختفى تمامًا، وكان سمت السكون فوق الوجوه باديًا كهدوء مريب يسبق العاصفة، وكان أكثر اندهاشي لما مررت بمقهى **ط** الشهير في ميدان **ل**، ووجدته شبه خال على غير عادته، وهو يكتظ بالزبائن ليلًا أو نهارًا، فتأكدت أن بالفعل ثمة أمر كبير يُدار في الخفاء وفي غيبة مني. يبدو أنني سأكتشف اليوم كثيرا مما غاب عني.

أزحت الغطاء الثقيل عن جسدي، بعد رحلة نوم قصيرة كانت كالعذاب، تلويت فيها فوق الفراش كالمذبوح، بعد أن تركني **علاء وممدوح** قرب الفجر، جلست على حافة السرير منكِّسًا رأسي، واضعًا راحة كفي على فخذيَ، أحدِّق في بلاط الحجرة منكسرًا كخارج من معركة مهزومًا.

طقطقت رقبتي، ثم نظرت لوجهي في مرآة الدولاب ذي الثلاث ضلفات، كان وجهي قديمًا كأنني عائش منذ عشرات السنين. زاد من قهر نفسي الشعر الأبيض الذي استولى على رأسي. هالتني كثافة شعر

ذقني المهوش كنباتات الحلفاء تنبت في المستنقعات والبرك وكأنني من أصحاب الكهوف القديمة.

غريبٌ أمري كأنني أرى نفسي لأول مرة منذ زمن. هل تحرك الزمن أيضًا في غيبة مني دون أدري؟ أثق تمامًا أنني لم أصل الثلاثين بعد. إذن ما الذي جرى؟ لا بأس. عليّ أن أرتب أفكاري لأعرف ما الذي يدور، وعليَّ أن أضع حدًّا لهذا كله. فإمَّا أن أستمر في التيه المدلهم القابض على حياتي، وإما أن أخرج لنفسي مجددًا كما يُلح عليّ كل من حولي.

وقفت متثاقلًا، وجررت قدمي جرًّا نحو الحمام، وبلغته منهكا حتى أنني خِلت أن المسافة بين حجرةِ نومي ومروري بالصالة حتى الممر الضيق المفضي إلى الحمام، قد طالت. أقف أمام الحوض، أتنفس بصعوبة. معدتي تؤلمني، وأشعر أنني بحاجة لأفرغ كل ما في معدتي. أسندت يدي على الحوض. لم أنتظر، أفرغت كل عشاء الليلة الماضية. بقايا المزَّة والبيرة. يتكرر ذلك معي كلما طاردني هاجس أنني مقبل على هول حدث كبير. أقسم أنني مقبل عليه. لا تسألني كيف عرفت. ألم أخبرك عن هواجسي القديمة وكوابيسي؟

لطمت وجهي بالماء المنساب من الحنفية لطما كأنني أعاقب نفسي من ذنب أو خطيئة اقترفتها. تأملت وجهي للمرة الثانية في مرآة

الحوض. أفكِّر في سر ذلك الشيب المفاجئ. لا أجد إجابة شافية. لا شيء. هُيئ لي وجهي أكثر بشاعة. تنهدت باستياء، وخرجت من الحمام، وقذفت بجسدي على أقرب كنبة في الصالة. وقعت عيناي على طفاية السجائر مسنودة على المنضدة الصغيرة، وبها عشرات أعقاب سجائر الليلة الماضية، بجوارها علب كنز بيرة فارغة، وثلاث زجاجات مياه معدنية.

مددت يدي، والتقطتُ علبة السجائر، وسحبت منها واحدة أحرق فيها أحلامي وآمالي التي تركتها خلف ظهري، وتفرغت لحالتي الجديدة من اليأس والقنوط. علبة السجائر بها سيجارة واحدة. انتابتني حالة ضيق شديد، وتجهم وجهي.. لا يمكن أن أبقى دون سجائر. عليّ النزول إلى الشارع، وشراء واحدة جديدة. لحسن الحظ محل البقالة أسفل العمارة.

أتنفس بعمق، وأتذكر أنني لم أتصل بعمي منذ صباح أمس. هو أيضا لم يتصل بي. أتساءل بدهشة: "ما الذي حدث.. ليست عادته؟"

لا يكف عمي عن الاتصال بي أكثر من مرة كل يوم، يطمئن عليّ، ويتابع أحوالي، خاصة في الأيام الأخيرة. هو لا يثق بي، ويشك في أمري، ويخشى ألَّا أذهب إلى المستشفى مجددا. ليس هذا فقط. هو يحبني أكثر من نفسه. حالة غريبة: أب لا يحب ولده أو هكذا يبدو لي،

وولد يبادله نفس الشعور. وعم يعشق ابن أخيه ويحبه أكثر من نفسه، والولد يحبه أيضا، ويجلَه.

أحاول أن أتذكر أين وضعت الهاتف آخر مرة. كان معي هنا في الصالة. فتَّشت عنه طويلا، لم أجده. زحفت على الأرض، وبحثت عنه أسفل المنضدة والكنبة. وجدته راقدا أسفل الكنبة. تساءلت:

- ما الذي جاء به هنا؟!

مددت يدي والتقطته. ضغطت الأرقام، وانتظرت صوت عمي على الطرف الآخر. لم يأتني صوته. نظرت إلى الشاشة مرة ثانية؛ فوجدت الهاتف كجثة ميتة دون إشارة. زممت شفتيَّ بغيظ. ليس هذا وقته. لعنت الهاتف. متى تعطل؟ لابد أن سقوطه هو السبب. لا مفر إذن من النزول إلى محل البقالة. أشتري علبة السجائر، وأتصل بعمي أطمئن عليه حتى أجد حلًّا لمشكلة الهاتف. ربما يكون اتصل بي أثناء تعطل الهاتف.

دخلت إلى حجرة نومي، وارتديت ملابسي على عجل، بحثت عن محفظتي؛ لم أجدها. المشكلة الأكبر التي تواجهني في الفترة الأخيرة. دائما أفشل في العثور عليها أو على غيرها من الأشياء. وككل مرة لا أجد مفرًا من أن أنادي **مهران**. لا يبذل جهدا كبيرا في العثور عليها،

وهي موضوعة أمام عيني وفي مكان واضح. يرمقني بنظرة الشفقة، فألوم نفسي التي سمحت لهذا الوغد أن يشفق عليّ.

في هذه المرة أفلحت ووجدتها. خرجت من الشقة، ونزلت من السلالم، تاركا المصعد الرابض أمام باب شقتي دون باب. أهاب النزول أو الصعود في المصعد، أشعر بالخوف لما ألج إليه. ربما يكون لحالة (الفوبيا) التي جاءتني لمَّا تعطل بي ذات يوم، وظللت فيه لساعتين حتى أوشكت أن أختنق.

قطعت سلالم الأدوار الأربعة بخطوات سريعة. استقبلني **مهران** بوجهه البارد، وملامحه الجامدة، وشاربه الكث، وعينين ثاقبتين كعينيّ صقر، مرتديًا جلبابه الأسود. أجزم أنه لم يغيره منذ أن جاء إلى هنا. يضع شالًا بني اللون حول رقبته، ويلف رأسه بعمامة كبيرة، تجعلها كقبة كبيرة، جالسًا على كرسيه أمام مدخل العمارة، يرتشف الشاي بصوت عال، وفي يده خرطوم الشيشة الذي لا يتركه من يده مطلقًا.

هزَّ رأسه، وقال بصوته الأجش:

- صباح الخير يا دكتور.. هل تريد شيئا؟

رمقته بطرف عيني مستنكرًا تطفله الدؤوب، وهمّمت بتوبيخه، تراجعت واكتفيت بأن لوَّحت بيدي في وجهه، ومضيت في طريقي دون أن أرد عليه.

خرجت إلى الشارع، كان نور الشمس يغمر العمارات والأرصفة، فانتابتني حيرةِ أكثر. اتجهت إلى دكان البقالة، وألقيت السلام على عم **إبراهيم** البقال. أناديه بعم **إبراهيم** احتراما وتقديرا. أطلَّ برأسه من خلف الطاولة، ونظر لي باستغراب، كأنه يتساءل عن سر نزولي مبكرا، كما أنني جئت بنفسي، ولم أرسل إليه **مهران**. طلبت منه علبة سجائر، واستأذنته أن أجري مكالمة من الهاتف المحمول.

ثبَّت عينيه الكليلتين عليّ بدهشة وارتياب أكبر. لم أفهم، فقال بنبرة أبوية:

- سلامتك يا دكتور!

حدَّقت فيه مستغربًا جملته، فقال لي بنبرة حزن:

- يا بني! لا يوجد اتصالات منذ ليلة أمس.

اتسعت حدقتا عينيّ، وسألته باهتمام:

- ما الذي حدث؟

أعطاني علبة السجائر، وهو يحدِّثني بصعوبة متهتهًا، فهو يعاني عم من صعوبة في الكلام:

- لا أحد يعرف، ولكن يبدو أنها المظاهرات.
- مظاهرات!

هكذا شهقت مستغربًا رنين الكلمة في أذني، والتي أسمعها للمرة الثالثة أو الرابعة. تلك الكلمة الجديدة التي لم أعتد سماعها. غمغمت في نفسي:

"يبدو أن العالم تبدل بالفعل في غيبتي وكأني **كأصحاب الكهف** استيقظت من سباتي بعد مئات الأعوام لأجد كل شيء حولي قد تغير. سألت نفسي بحزن: ما الذي حدث وتغير؟ نعم، كنت بينهم كجسد بلا روح، إلا أنني أسمع كلامهم، أبصر كل أفعالهم. كنت هنا بالأمس وأول أمس، ونفس الوجوه والأماكن لم تتغير. هل أنا في كابوس آخر لم أستيقظ منه بعد أم أنه وجه **مهران** النحس؟"

كانت أول مرة سمعتها من سائق التاكسي لما مرّ بي بالقرب من ميدان **ت** قبل ثلاثة أيام، وتفاجأت بآلاف الشباب بمختلف أعمارهم، ذكورا، وإناثا، يفترشون الميدان، يلوِّحون بأيديهم، ويرددون هتافات لم أعتد سماعها، وندمت أشد الندم لما سألت السائق عنهم، والذي يبدو أنه

لم يكد يسمع السؤال؛ فحسب أن فيه راحة لثقل ما يحمل فوق صدره من متاعب الأيام وطحنها، فراح يكيل لهم اللعنات، ويقرعهم بأبشع الألفاظ والصفات، ويتهمهم بأنهم شباب تافه لا هموم لهم، ولا يعرفون ماذا يريدون، لا يدرون عن مشاكل الحياة ومصاعبها شيئًا.

واصل كلامه بلا توقف كمحطة راديو يندد بمطالبهم عن العيش والحرية والعدالة الاجتماعية، وهم الذين يعيشون في قصور مذهبة، يحيون فيها حياة مرفهة، كل ما يحلمون به يُلبى، قال وهو يتطلع إليَّ:

- ما أدراهم بمشقة لقمة العيش؟

لم يكن يدري أنني لست معه تمامًا، ألقيت سؤالي، ولم يعد يعنيني من يكونون. لم يتوقف السائق عن الكلام، وكأن ماسورة كلام انفجرت في فمه، وأخذ يشرح لي بالتفصيل حكايتهم. حاولت مرارا أن أجعله يتوقف، لكنه أصر على الكلام، ولم أسترح منه، إلا لما أشرت إليه أن يقف بعد أن اقتربت من الوصول.

سمعتها للمرة الثانية من تلك العجوز التي تفترش الرصيف، وألحَّت عليّ بالسؤال، فاستدرت إليها، فتَّشت في جيوبي عن جنيه أو حتى ورقة بخمسة جنيهات، لكنني لم أجد سوى ورقة بعشرين جنيها، نظرت إليها مليًّا قبل أن أعطيها لها، فلم تصدق نفسها لما أمسكتها؛ وراحت تجزل

لي في الدعاء، ولمَّا رأتني أنحرف ناحية شارع **م** المفضي إلى ميدان **ت**، نادتني، فلم ألتفت إليها، حذَّرتني من المرور من ذلك الشارع كأنَّها تكافئني على عطائي، أخبرتني أن العساكر يترصدون لكل من يمر منه، ظنًّا منهم أنه سينضم للمتظاهرين بميدان **ت**. لم يكن مقصدي المرور بالشارع. سأنحرف عند أول مدخل، أمر به إلى شارع **ف**، ومنه أعبر إلى الشارع الذي أقطن فيه.

وكانت المرة الثالثة لمَّا تأخَّر علينا **ممدوح**، بعد أن اتفقنا معه أن يأتي في المساء بالبيرة والحشيش، على أن نتكفل أنا **وعلاء** بالعشاء. تأخَّر **ممدوح** في المجيء، فاستشطت غضبًا. حاول **علاء** أن يهدئني، يخبرني أن الشوارع ملغَّمة بالبوليس. لم أهتم لكلامه، ورحت أتوعد **ممدوح**، ولما طرق الباب، تأهبت للانقضاض عليه.

فتح **علاء** الباب، فدخل **ممدوح** ممسكًا بكيس به علب البيرة. لم أتمهل واندفعت لأشتبك معه. حاول **علاء** أن يفصل بيننا، فدفعته في صدره بقوة حتى وقع على الأرض. رمى **ممدوح** بالكيس وهمّ بالخروج. أمسكه **علاء** المتألم من طرف بنطاله، ونهض بصعوبة وهو يلح عليه أن ينتظر. اعتذرت لهما، وقلت لهما وأنا أنشج:

- أنا أسف.. ولكن كلاكما يعرف ما بي.

ووجَّهت كلامي مرة أخرى **لممدوح** ألومه:

- كما أنك أنت بالفعل تأخرت.

وكدت مرة أخرى أن أشتبك معه وبصورة أشرس لما طلبت منه الحشيش، فمدَّ لي يده بيضاء، وقال: "بح".

تمالكت نفسي، وإن لم أكتم غضبي في نبرة صوتي:

- لم لمْ تأت به؟

قال **ممدوح**، وهو ينظر **لعلاء** مستنكرًا سؤالي:

- لو تعلم ما يدور بالخارج لما سألت. الشرطة في كل مكان لا تترك أحدًا إلا وتفتشه.. سيارات الأمن المركزي تقف في كل الشوارع.. بصعوبة اشتريت البيرة، وتجنَّبت كل الشوارع التي يوجدون فيها حتى أصل إلى هنا.

أعرف أنه يقول الحقيقة، وحديث العجوز لا يزال صداه في أذني، لكنني رغم ذلك قلت له:

- ولم كل ذلك؟! هل هي الحرب؟

أجابني **ممدوح**، وهو يتأهب للجلوس حول المنضدة الصغيرة:

- بل هي المظاهرات!

وقبل أن أسأله مرة أخرى، أخرج **علاء** لفافة من جيبه.. لفافة عرفت أنا و**ممدوح** ما فيها، ورغم أننا نعلم تماما بما يأتيه **علاء** من أفعال مباغتة وغير متوقعة تضحكنا، إلا أننا انقضضنا عليه، ورحنا نكيل له اللكمات والضربات في كل مكان من جسده، وهو يستغيث ضاحكًا:

- والله أنا كنت مخبئها للزمن.

كل ذلك والكلمة لا تفارق رأسي:

"المظاهرات".

***

عُدتُ إلى الشقة، واستلقيت على الكنبة أفكر في الكلمة: "المظاهرات" مرة أخرى أجدّد نفسي تائهًا عن كل ما حولي. عن كل ما عرفته المرأة البسيطة وعم **إبراهيم** وكل الناس. مرّ على الوقت في حالتي تلك حتى تهادت إلى أصوات الأذان الخاشعة من الجوامع والمساجد المحيطة وفي أماكن شتى. فكرت أن أصلي. ربما أفكر في هذه المرة بصورة أكبر. ثلاثة شهور كاملة لم أقرب فيها مسجدًا، ولم أفعلها حتى في البيت أو المستشفى أو في أي مكان. ربما لو فعلتها لمرة واحدة مجددا لتغيَّر كل شيء.

لطالما تساءلت عن سبب ذلك: هل يكون موت أمي؟ ولكن ما علاقة موت أمي بانقطاعي عن الصلاة؟ هل أظن أنني بذلك أعاقب الله الذي أخذ روحها؟ ماذا لو ظللت بقية عمري لا أصلي؟ هل ستعود أمي أو سيحزن الله لأنه أخذها؟ مرات كثيرة يكون الموت دافعًا لاستعادة الروح والنفس، ومرات أخرى يفقد فيها المرء اتزانه وكل حياته.

ربما راودتني الفكرة للحظة، فكرت أن أذهب لأصلي في جامع ز أو مسجد **س**، قبل أن يزحف الشيطان على جسدي كالدبيب، ويتسلل إلى أذني ويخترقهما، ويصب فيهما وساوسه صبًّا، فأقلع عن الفكرة تمامًا وأسقط جمعة وصلاة جديدة من حياتي.

ظللت ممددًا على الكنبة لا أدري ماذا أفعل.. أحاول أن أشغل نفسي بمشاهدة التليفزيون. ضغطت على زر الريموت، وتنقلت بين القنوات حتى وصلت إلى القناة الأولى.

كان التليفزيون يعرض فيلمًا تسجيليًّا، تبعها حلقة عن عالم الحيوان، رأيت فيها أسدًا يختبئ بين الحشائش، يترقب ويترصد غزالة، حتى اقترب منها، فتهيأ للظفر بها، ولما شعرت به ركضت بعيدًا، ولكنه لم يتركها، ظلَّ يركض وراءها حتى تمكن منها، وانقض عليها، وغرس أنيابه الحادة في عنقها الطري، فتفجر الدم كنافورة، قبل أن يدعو صغاره للوليمة الجاهزة.

تألمت في نفسي من تلك اللقطة. أكره لون الدم مثل كرهي للموت والكوابيس. أبعدت نظري عن شاشة التليفزيون، وقعت عيناي على صورة جدي، بملامحه الجادة المتجهمة، وشاربه الكبير. تمنيت لو أمسك ذات يوم بهذه الصورة –المعذبة لي–وحطّمتها تحت قدمي مثلما فعلتها وتجرأت مع صورة أبي لولا خوفي من عمي، فإن سامحني على صورة أبي، لن يفعلها مع صورة جدي. دائما ما تذكِّرني تلك الصورة بالنجع، وكره الناس فيه لأبي وعائلتي، ومن قبلهم جدي نفسه الذي أطلق أول شرارة للظلم، وأوفى الكيل بعدها أبي.

تراجعت ببصري مجددًا إلى التليفزيون، الذي ظل يعرض مشاهده الرتيبة المملة.. أحسُّ بصداع خفيف يناوش رأسي، يبدو أنه من آثار السهر والحشيش، وتقلبي في منامتي كالذبيح.

كنت أشعر بالجوع يقرص معدتي، أسمع صوتها يصرخ كنفير سيارة. عادة لا أكل في الشقة يوم **الجمعة**. أذهب إلى أي مطعم قريب وأتناول غدائي فيه. تحذير عم **إبراهيم** الشديد جعلني أمكث في الشقة. قال محذرا كأنه يوم القيامة:

- لا تخرج من الشقة مهما يكون.. يعلم الله وحده ماذا سيحدث.

عليَّ أن أفتش عن طعام في المطبخ. **سنية** الخادمة لم تجيء منذ ثلاثة أيام. اعتذرت وقالت إنها مريضة. يبدو أنها أيضا كانت تعرف بالمظاهرات وخافت من الخروج.

داخل المطبخ، لم أجد غير رغيفين جافين تعطنت أطرافهما، مسنودين بجوار الأطباق المتسخة المكدسة فوق حوض المطبخ. نفخت بضيق، ثم توجهت ناحية الثلاجة، وفتحت بابها. لم يكن حظي فيها أوفر حالًا، لم يكن بها إلا طبق به بقايا جبن وثلاث زيتونات. لا يمكن أن أبقى جائعًا، عليَّ أن أنزل مهما يحدث. أتراجع وأفكر في كلام عم **إبراهيم**. كل ما جرى في اليومين السابقين يدور في ذهني. الخوف يجبرني على البقاء وتحمل الجوع. بالفعل لا يمكن المجازفة. لكن الصمت المطبق حولي، والهدوء المريب يشككان في رواية عم **إبراهيم** البقال، فأعاود مرة أخرى أفكر في النزول.

ظللت أتنقل بين حجرة نومي والصالة عاجزًا عن أخذ أي قرار. أفكر في أن أنادي **مهران**، ليحضر لي طعام. قرار صعب لكن ليس أمامي أي حلول أخرى. قبل أن أخرج من الشقة لأناديه، أسمع أصواتًا عالية كالهدير. أصغي السمع لأعرف مصدرها. بالفعل هناك أصوات كأنها تأتي عبر نافذة المطبخ. قلت لنفسي. عليّ أن أتيقن، أسرع إلى المطبخ، وأفتح النافذة. ارتفعت الأصوات بقوة واختلطت كأنها مشاجرة محتدمة.

كأنها المظاهرات التي أخبروني عنها. جاءت الفكرة إلى رأسي سريعا. يدفعني الفضول للنزول وأعرف الحقيقة عن كثب. تُكتف خطواتي خوفي الشديد؛ فأتراجع عن الفكرة. لم أجازف في أي يوم في حياتي، ولم أمش في شارع مظلم لأكتشف كيف تكون الظلمة خوفًا من آلام الخروج منها.

صدى صوت عم **إبراهيم** يرن في أذني، فيزيد من قلقي، ويقتل الفكرة في رأسي.

أتذكَّر أبي، وحديثه لي ألَّا أخرج وحدي أو أمشي في ليل أو خلاء، فأسبُّه في صمتي. أي خوف رهيب ذلك الذي زرعه في قلبي؟ حاولت أمِّي طويلًا أن تفكّ قيود خوفي. عجزت في ذلك تماما. نظرة واحدة من أبي كانت تكفي لأن أظل في خوفي أحجل. تشاجرت معه وطلبت منه أن يكف عني. قال لها بكل هدوء كأنه يسخر منها:

- هل ستفرحين إن جاءك ميتًا برصاصة طائشة؟

ترد عليه أمي:

- لن يؤذيه أحد.

يضحك أبي ويخرج مرددا:

- جرَّبي.

لطالما كانت معي على الدوام في لحظات خوفي وترددي. دائمًا ما تأتي في اللحظة المناسبة التي أوشك فيها أن أرتكب حماقة كبرى تجهز على البقية للإنسان داخلي. منذ صغري وهي تفعل معي ذلك، تعرف كيف توقف صغيرها على قدميه، تجعله يواجه الريح الصعبة بجسارة يحسدها عليه غيره، والتي لولاها لاقتلعته من على الأرض كشجرة هرمة. أليست هي أول من علمتني أبجدية الكلمات والحروف.

لم يصدقان **علاء وممدوح** حينما حكيت لهما عن حضورها حتى وإن تباعدت بيننا المسافات وقت أن أحتاج إليها. قالا لي إن كل إنسان يحب أمه ويتعلق بها يستدعيها في يقظته وأحلامه. أوصياني أن أفيق من أحلامي وألا أدع تلك الأفكار تسيطر عليَ حتى تستمر الحياة.

لكنني الآن، وفي هذه اللحظة بالذات أشعر بوجودها معي. لم تكن طيفا ولا روحا يحوم حولي. إنها نفسها تقف بجسدها الآن أمامي. ترتدي ثوبا أبيض، يجر ذيله على الأرض. لأول مرة أراها ترتديه، على خلاف ثوبها الأسود، الذي ظل ساكنا جسدها على الدوام، وحينما سألتها عن السبب، أجابتني أنها لن تخلعه أبدا إلا في حالتين: حينما أصير عريسًا أو أن أفي بعهد جدي.

كانت تضع على رأسها غطاءً أبيض، ينتهي بشراشيب أطرافها خرزات تلمع كأنها حبات لؤلؤ. أشهق من الفرحة، وأتقدم فاردا ذراعي،

لتضمني إليها. تصدني بيدها، وتتراجع إلى الوراء، فأرمقها مندهشا، سألتها بحزن:

- لم؟

تشير إلى النافذة، وتقول بحماسة:

- لا تنتظر؟

هززت رأسي، وقلت لها لا أفهم.

لوَّت فمها في حركة أعرف غضبها فيه، فنهضت ودنوت منها، وكررت عليها:

- سامحيني يا أمي، ولكن حقًا لا أعرف عن أي شيء تتحدثين.

عقدت حاجبيها، وبدت علامات الغضب في وجهها أكثر حدة، ثم أشارت ثانية ناحية النافذة التي تأتي منها الأصوات الهادرة. لم تكتف بذلك. أخذتني من يدي. سارت بي إلى الباب. فتحته. قالت وهي تشير إلى السلالم:

- هيَّا.

خرجت من الشقة ونظرت ورائي ولم أجدها. اختفت وكأنها لم تكن، كان صدى صوتها لا يزال يتردد في فضاء الهواء:

- هيَّا انزل.. هيَّا انزل.

***

الطريق إلى الميدان

قابلني **مهران** بتجهمه المعتاد. ناداني وأنا أجري خارجا من باب العمارة:

- إلى أين يا ابن العم.. الدنيا مولعة بالخارج؟

لم أصغ إليه وواصلت جريي، وكأن صوت أمي لا يزال يشحذ همتي ويدفعني لمواصلة الجري.. وددت لو بقيت معي طويلًا، لكنها كانت حاسمة، وأمرتني بسرعة النزول.

ازداد وهج الأصوات أول ما وطئت قدمي الشارع، كأنَّها تأتي من اتجاه مبنى **ض** الشهير. هكذا قلت لنفسي.

انحرفت يمينًا وقطعت الشارع حتى وصلت إلى أول شارع **و**. تفاجأت بما رأيت: كانت أمواج البحر تتدافع وراء بعضها وكان ماؤها من ناس. وقفت مرتبكًا لا أصدِّق. أول مرة تقع عيني على مثل ذلك المنظر. فكرت في النكوص، والهروب بعيدًا عن تلك الشلالات الهادرة.

جاءني صوت رفيع كأنه يناديني بالتحديد:

(يا لي واقف خايف ليه.. أخذت حقك ولا إيه).

تلفتُّ أفتش عن الناحية التي جاء منها الصوت. كان يصعب أن تحدد وسط آلاف الناس من أين يأتي. تردد صدى الصوت مرة أخرى كدوائر يشق أذني.

دُرت بجسدي مرة أخرى أفتش عنه.. مع استدارتي وقعت عيناي على فتاة ترتدي بلوزة بيضاء وبنطلونًا رماديًّا. كانت تقف بمحاذاتي تمامًا، لا تتوقف عن الهتاف بحماسة عالية، والحشود خلفها تردد ما تهتف به.

ستكون اللحظة حاسمة كطلقة رصاص خاطفة. لكنك ستبصرها كحياتك كاملة منذ لحظة الميلاد إلى اللحظة التي تمضي فيها بعيدًا. عليك أن تدقق النظر وتصيخ السمع.. عليك أن تخرج من الدوَّامة.

للحظة اختفت كل الحشود من حولها، وبقيت هي وحدها كمشهد يبرع المخرج فيه لما يركز عدسة الكاميرا على شخص دون بقية الآلاف حوله. هذا ما حدث لي. كل هذه الجيوش من الناس تركزت في صورة الفتاة، وصارت هي وحدها الواقفة في الشارع، وكل ما حولها فضاء لا أحد فيه. للحظة توقف عقلي ونسيت هول ما يدور.

ركَّزت الفتاة عينيها نحوي مرة أخرى، أو هكذا حسبت، لكن كان ذلك كافيًا أن تلتقي عيني بعينيها ولو للحظة خاطفة. لكن ربما تكون لحظة واحدة كحياة كاملة أو تستعاد بها الحياة. أحسست أن شعاعًا خرج من عينيها كان كسهم نافذ ضرب صوب قلبي. سهم كان كافيًا ليحرك عالم السكون في لحظة خاطفة كحجر يرمى في سطح ماء بحيرة راكد ماؤها، فتصنع دوائر في إثر دوائر.

تساءلت: هل يمكن أن يحدث ذلك في عالم الحقيقة؟ وكنت أحسبه خيالًا يتفنن فيه الكتاب يملؤون به رواياتهم. وجدتني بالنظرة أنسحب إليها، وكأن حبلًا مشدودًا من عينيها يسحبني نحوها.

لا أعلم السر الذي جرفني إلى الفتاة أول ما وقعت عيناي عليها. مؤكد هناك سر، وإلا ما سبب تلك الرعشة التي انتابتني أول ما رأيتها؟! وكأن عصا ساحر لامستني. لم انتفض قلبي بين ضلوعي؟ وأحسست أنه سيقفز ويخرج من صدري. نعم! حدث ذلك كله في لحظة خاطفة، لكنها لحظة كافية حتى أني لا أحسبها أفضل من شهور طويلة عشتها مكلومًا.

كانت حركة الحشود سريعة، وبقدر خوفي للمشهد الرهيب، ومحاولة نكوصي، إلا أن وجه تلك الفتاة أخذ يسحبني وراءه، وكأن هناك

رابط خفي وغير معلوم بيني وبينها، لم يكن المكان ولا الزمان يسمحان لي فيه أن أفكر.

كنت أحاول أن أجري، أحاول أن أجتاز الحشود لأصل إليها، ولحسن حظي أنها كانت تتقدمهم، وكأنها القائد لذلك الحشد الكبير.

ظللت أركض وأركض يحسبني الناس أنني أشدهم حرصًا على الهتاف، حتى أنهم أفسحوا لي، مما مهَّد لي أكثر للقرب منها. ولما دنت المسافة بيني وبينها، وأصبحت على مقربة خطوات منها، حدث ما لم تتوقعه الحشود، أو أنني وحدي الذي كنت أجهله.. فجأة دوَّت أصوات فرقعات جاءت من الخلف ومن الأمام، من اليمين واليسار، بل أظنها جاءت من أعلى ومن أسفل، حتى أنني أحسستها تقتلعني من مكاني. ووراء الفرقعات ظهرت سحائب دخان عالية، رائحتها خانقة، غمرت العيون بالدموع التي سالت على الخدود، وكان ذلك كله كافيًا لتفريق الحشود، التي أخذت تتدافع وتجري في كل مكان تحاول أن تحتمي. عرفت أن الشرطة تطارد المتظاهرين بقنابل الغاز المسيِّلة للدموع، يحاولون أن يفرقوهم.

خفت بشدة، فرحت بدوري أبحث لي عن مخبأ أختبئ فيه، وصوت ما داخل نفسي، يكاد يحاسبني حساب الملكين لتورطي بالنزول. لمحت الفتاة أثناء جريي تركض في اتجاه شارع جانبي. فكرت أن أجري

وراءها، لكن الصوت المعاند المحرِّض سمعته يواصل تعنيفه قائلا: "حياتك أهم من أي فتاة."

لكن القوة الأخرى الخفية التي تولَّدت داخلي منذ لحظة رؤيتها كانت تقف بالمرصاد لذلك الصوت، وأخذت تلحّ عليّ أن أتبعها. كان الدخان يكتم أنفاسي، ويدمع عينيَّ حتى لا أكاد أرى. أخيرا انتصر الصوت المحرض، وأخذت أركض حتى انحرفت إلى شارع جانبي، ألتقط أنفاسي بصعوبة، وكنت على وشك الاختناق.

وجدت مخبأً في ذلك الشارع الجانبي، ولبدت فيه، وأصوات الفرقعات لاتزال تعلو وتعلو، وسحائب الدخان توشك أن تغطي سماء ق، وبينما أنا في مكاني لابدًا إذا بمجموعة شباب يحملون شابًّا بينهم، مدلاة رقبته حسبته ميتًا. أرقدوه على مقربة مني، وسمعتهم ينادونه ببكاء دون أن يرد عليهم.

لا أدري ما الذي دفعني لأن أقوم من مكاني، وأتجه إليهم. ربما دفعني ضميري كطبيب، ولكن حتى هذا أشك فيه في شهوري الأخيرة، لكن على كل ذهبت إليهم، وطلبت لهم أن يفسحوا لي. أخبرتهم أنني طبيب، فسمحوا لي أن أكشف على الشاب. بدا وجهه واهنًا وشاحبًا، فأمسكت بذراعه، أعاين النبض فيه، فوجدته ضعيفًا، لكن كان كافيًا لأن أطمأن أنه لا يزال حيًّا. أجريت له بعض الإسعافات الأولية حتى أرمشت

جفونه كرفرفة جناحي طائر يصارع الموت. حاولت معه مرات أخرى مستعينًا ببعض أدوات بسيطة وأدوية كان يحملها الشباب، حتى أخيرا فتح عينيه أخيرًا، وقال بصوت خافت:

- عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية.

تنهَّد الشباب بارتياح، وهمُّوا أن يشكروني قبل أن يجيء شاب يحذرنا من اقتراب الشرطة من ذلك المكان.. بدوري أول ما سمعت تلك الكلمة تركت أقدامي وحدها تجري من شارع جانبي إلى آخر حتى تمكنت من الفرار، ووصلت إلى العمارة، ولم أتوقف عن الركض حتى صعدت إلى الشقة، ورميت بنفسي على الكنبة ألتقط أنفاسي بصعوبة. وما إن هدأت حتى لمت نفسي وأنَّبتها، لأنني لم أصغ لنصيحة عم **إبراهيم**.

***

بقيت في الشقة خائفًا كفأر مذعور. بين لحظة وأخرى ترتفع الأصوات ثم تليها أصوات فرقعات. كرٌّ وفرٌّ بين الصوتين. بقيت المشكلة الوحيدة في أن أخمد الأصوات العالية لمعدتي، وفي هذه لم أجد مناصًا من الركون إلى **مهران**، الذي جاءني مبتسمًا وكأنه ظفر بنصر عظيم، ولما طلبت منه أن يحضر لي طعامًا، هزَّ رأسه بكل ثقة، قبل

أن يمد يده ليتحصل على مبلغ إضافي نظير مغامرته المحفوفة بالمخاطر كما قال ببجاحة لي.

بعد ساعة جاءني **مهران** لاهثًا. أخبرني أن الشرطة اختفت. لم أفهم كلامه. زاد من رعبي لما قال وهو يضع الطعام أمامي:

- لا تخرج.. اللصوص في كل مكان.

جنون ما يدعيه **مهران** ولا أثق في روايته، لكن لم يكن أمامي سوى الاستسلام والبقاء في الشقة. تناولت الطعام سريعًا، ثم دخلت حجرتي، وتمددت على السرير، حاولت جاهدًا أن أنام. ظللت لوقت طويل أنظر إلى اللمبة المدلاة من السقف العالي المطلي باللون بالأبيض. تقلَّبت يمينًا ويسارًا، وفي كل مرة كانت تطاردني الصور القديمة وأحداثها: صور أبي وعمي وكل الناس في النجع، وبقيت صورة أمي لا تفارقني.

ولكن كل ذلك لم يكن بقدر معاناتي أول ما غفلت عيني، وراودني حلم جاءت فيه أمي مرة أخرى. كان وجهها عابسًا على غير عهدها، قالت كلمة واحدة ثم تراجعت إلى الوراء:

- خذلتني.

تقدمت نحوها، وسألتها بلهفة المكلوم:

- عن ماذا تتحدثين يا أمي؟

سكتت، وطال سكوتها، فأخذت أبكي:

- عن ماذا تتحدثين يا أمي؟

أخيرا تكلمت، قالت:

- لم هربت.. لم هربت.. كانت بين يديك؟

كأن أمي تكلمني بألغاز. "لا أفهم كلامك". قلت لها. زمَت شفتيها، واقتربت مني. وضعت يدها على كتفي. ملمس يديها بارد. قالت: "فتاة الحلم".. لم أكن بحاجة لألغاز أكثر، لكنني بسرعة تذكرت لما أخبرتني عن الرؤيا القديمة. لم أتمالك نفسي وشهقت بكل ألم نادما:

- هل أضعتها وكانت قريبة؟ هل أضعتها وكانت قريبة؟

***

رؤيا

صرير الماء يصل إلى أذني وأنا بين النوم واليقظة كأن ينساب من نهر قريب. أفتح عينيَّ وأرى طيورًا كثيرة تقف فوق غصن شجرة كبيرة. طيور لم أر لها مثيلًا. ألوانها مختلفة وجميلة. أحدهم لونه أصفر، وجناحاه يقتربان من الزرقة. يدور ويدور فوق عيني. أقف متكاسلًا، وأجري وراءه. لا أرى الشمس في السماء، ولكن النور أبيض ساطع يتخلل أغصان أشجار كثيفة ووارفة. الهواء رطب ومنعش ورائحته ذكية. أخذ نفسًا عميقًا، فتختلط رائحة الهواء برائحة الورود. ثمة أحواض مملوءة بأزهار وورود من شتى الألوان. أفرد ذراعي أطرد كسلًا غير موجود. أفكر مليًّا: "ما الذي جاء بي إلى هنا". لا يمكن أن يكون هذا حلمًا؛ فأنا أشعر بملمس الأشجار وأسمع صوت الماء كما هي في الواقع. لا ليس حلمًا. لكني أتذكر أنني كنت قبل قليل أبكي قرب رأس أمي، وهي ممددة على السرير.

قلت لها، إنني أشعر بالوحدة. حياتي طريق مظلم بين جبال عالية وأنا أخاف الظلمة. لا أمل لي في مشعل نور أو حتى إضاءة خفيفة. وحدي أسير ويبدو أنني سأظل...

تأملتني أمي بحزن ولم تتكلم. كاللحن الحزين يدندن كل ما حولي.. وضعت كفيَّ على خديّ أمي وتأملت عينيها.

"لا أعرف دونك ماذا أفعل؟ تطاردني أشباح الكوابيس في نومي، وفي يقظتي تصير الأشباح كالموت المحدق تصير معي في كل مكان."

أسمع بكاء أمي التي تحاول أن تكتمه.

"سأعيش وحيدًا وأبقى طوال حياتي وحيدًا كالشجرة الوحيدة في صمت الصحراء لا أحد يؤنسها سوى ريح تضرب بأغصانها."

قلتها قبل أن أغادر الحجرة والدموع تبلل عينيها.

أمضي بين الأشجار الكثيفة أستكشف المكان، ربما أكون اختطفت في غفلة من أبي وخفرائه. أضحك ساخرا من نفسي.

"وهل من سيخطفك سيضعك في واحة كالجنة؟"

قطعت جازما أن هذا لن يكون. إذن أين أنا؟ ومتى جئت؟ أسئلة تستغرقني في كل خطواتي بين روعة الأشجار، والطيور التي تتقافز بين الأغصان.

ثمة نور هائل يسطع بين الأشجار يخترق عيني. أضع يدي على عيني أحاول أن أتجنب شدة الضوء. تخف حدة الضوء، فأفتح عيني قليلا."واااو." شهقت دون إرادة مني. أمي هالة من نور أبيض تضع فوق رأسها تاجًا أبيض كأميرات النور. أفتح عينيَّ فلا يعوقنى الضوء. "أمي ليست وحدها" تمسك بيد فتاة ترتدي أيضًا فستانًا أبيض له شراشيب تبرق كالماس، يتجهان معا نحوي. أمي تبتسم وتشير لي بيدها. كأنها أيضا تناديني. وجه أمي مضاء ووجه الفتاة كقمر يلمع في سماء. تتقدم بها ويقفان أسفل بوابة ظهرت بين الأشجار أعلاها قبة كهلال، تنبثق منه أنوارا تضيء بألوان كقوس قزح.

الآن أسمع صوت أمي واضحًا وهي تشير بيدها إلى الفتاة: "اقترب.. اقترب." تقدمت نحوهما كالمجذوب مسحوبًا وراء سحر جمال الفتاة. كلما تقدمت ثمة أياد خفية تعرقل خطواتي، تمسك بساقي، وأصوات كالنفير تصرخ في أذني: "لا تذهب".. قاومت بعنف حتى عبرت الحاجز الذي يفصل بين عالمين. اقتربت من البوابة، ولكن الفتاة كانت قد اختفت، وبقي منها الظل الذي يتبقى من شخص عابر.

***

هذه رؤيا اجعلها دائما نصب عينيك.. لا تحيد عنها لحظة.. فيها نجاتك وخلاصك، ستستعيد بها روحك المشنوقة بالعذاب، وترجع إلى نفسك وذاتك. لا تفكر أو تتردد وقت أن تواتيك اللحظة. اللحظة كلمحة ضوء خاطفة، اثقب بها الظلام وقت أنت تأتيك تكتشف بها سر نجاتك.. واعلم تمامًا أن هذه اللحظة ستكون رسالة قادمة من السماء إليك أنت بالذات"

هكذا قالت لي أمي لما جئتها على غير عادتي مبتسما.. قلت لها بسعادة:

- حلمت بها!

نظرت إليّ أمي باهتمام، وسألتني وقد اعتدلت في نومتها:

- من هي التي حلمت بها؟!

قبضت بيدي على صدري كأنما أحتضن شيئًا:

- الملاك يا أمي!

أمسكتني من يدي، وأجلستني جوارها، وقالت ضاحكة:

- تعال.. احكِ لي ما رأيت بالتفصيل.

نمت على حِجرها كما كنت أفعل صغيرًا، وحكيت لها حلمي.

قالت أمي:

- المرء لا يولد إلا مرة واحدة.. والحياة لا تبتسم له إلا لحظة؛ فإما أن يتشبث بتلك اللحظة ولا يتركها تنفلت من بين يديه، فتجعل كل حياته بعد ذلك سعادة، أما إذا انفلتت منه فلا يلومن إلا نفسه.

قالت أيضا:

- فتِّش عنها يا ولدي.. هي حقيقة واقعة، فيها حياتك الجديدة.. أحلامك وآمالك.. سراجك الجديد الذي يبدد العتمة.. هي الطريق الذي يهديك من مغبة التوهان.

فرحت بكلامها، وغرقت في نشوة الحلم والبحث عن الحقيقة في صورة فتاة.

***

لن يأتيك الحظ مرتين

في طريقي الآن إلى المستشفى. لا يمكن أن أبقى في الشقة مهما كان الخوف. يكفي ما فات مني. يومان والخوف من المجهول يطاردني. فاجأني صوت ما بداخلي:

"ستبقى حبيس نفسك قبل الشقة إن لم تخرج. عليك أن تبدأ مرة أخرى. تخطو فيها أول خطوة نحو استعادتك نفسك وخروجها من الشرنقة. اليأس قاتل، والخوف مطيَّة للتائهين".

لا يزال صدى صوت أمي أيضا لا ينقطع عن مسامعي:

- عليك أن تخرج وتبدأ من جديد.. العذاب أن تتذكر أن حياتك كانت بين يديك، وتتركها بغبائك وخوفك.. لا يكفي هروبك من المظاهرات بل استسلمت كدلو لكلام **مهران**.

منذ خوفي وهروبي من هدير المظاهرة لم أفارق الشقة. بقيت مسجونا بداخلها طيلة اليومين مثل قنفذ محاصر بأشواك خوفه. قال **مهران** الكلب مكررًا تحذيره:

- اللصوص في كل مكان. الشرطة اختفت.

ثم ضحك ضحكته الصفراء.. تضايقت منها ومن وجهه، أضاف ببرود شديد:

- لو خرجت قد يعتدي عليك أحدهم.

ارتعبت وقررت البقاء. كان لا يجب أن أستسلم لخوفي وكلامه. لثلاث مرات في الليلة الأولى لا يفارقني نفس الحلم، وفي كل مرة أمي توبِّخني. تقرر صراحة أنني جبان. أجبن إنسان في العالم، وكذلك أغباهم. وكيف لا أكون أغباهم وقد تركت الفتاة تهرب من يدي. ربما بعثت لي برسالة أخيرة في الليلة الثانية، أفسحت لي خلالها الأمل من نافذة الحياة. كانت أكثر رقة وهدوءا في ذلك الحلم، وابتسامة من نور تعلو شفتيها. كان كلامها مريحا تلك المرة، وهي تمسد شعري:

- أمامك فرصة أخرى، فعليك ألا تتردد. إن فشلت، فلا تلومن إلا خوفك. حلمك قريب، وأملك يطاردك كظلك فلا تهرب منه. فقط عليك أن تخرج إليه، وتدعه يلاقيك.

أمي لا تقول هباءً. لا يمكن أن تأتِ لي في المنام لأربع مرات خلال ليلتين، إلا أنها تعرف أن الأمل قريب، يفتح ذراعيه، حالما أخرج إليه. دائما تعرف. عليّ أن أسمع كلامها وألّا أفوّت الفرصة.. عليّ أن أفك رباط خوفي والسجن الذي أعيش فيه. عليّ أن أنير ظلمة نفسي قبل ألج ظلمة الخارج.

ليلة أمس، جاءني اتصال من الدكتور **حلمي**، طلب مني ضرورة الذهاب إلى المستشفى، كان الخوف يرزح داخل صدري، وأصوات الفرقعات والقنابل للمسيلة، ورائحة الدخان تتجسد أمام عيني، فحاولت أن أعتذر له. لم يمنحني فرصة، قال بإصرار:

- عليك أن تأتي غدا.

أغلق الهاتف، وتركني أفكر. قلت في نفسي بضيق: "ليت الاتصالات لم تعد!"

بقيت المشكلة الكبرى. كيف سأخرج من خوفي وأكسر قيودي؟ **مهران** الكلب صوَّر لي الدنيا في الخارج ساحة حرب. هو محق. أنا نفسي شاهدت ذلك. الأصوات التي أسمعها تؤكد كلامه. ما أراه في التليفزيون وأسمعه يعزز قوله.. لكن كل ذلك لا يهم. لابد أن أحاول ولو مرة واحدة أن أكون صاحب قرار.

الآن عليك أن ترمي كل ذلك وراء ظهرك. عليك أن تخرج من سجنك، وتواجه حقيقة ما يحدث بنفسك. لا مناص من ذلك.

أرتدي ملابسي، وأخرج. لن أهتم بكلام **مهران**. لن ألتفت إليه وهو يناديني.. ها أنا أبدأ أول خطواتي إلى الشارع أقرر أن أكون. صورة الفتاة تطاردني، وصوت أمي يقرع في أذني.

في الشارع اكتشفت الخدعة الكبرى **لمهران**. لا.. بل تأكد لي حدسي. قطعًا وجدها الكلب فرصة كبيرة لمزيد من المساومة. يبيع أباه وأمه لو يملك.

الناس يذهبون ويجيئون في الشارع. بعضهم يحمل في يديه أعلامًا، يرفعها بسعادة. يبدو أنهم كانوا في ميدان **ت** أو ذاهبون إليه. ثمة محلات مغلقة وأخرى مفتوحة. لكن توجد حياة. ليس كما صوَّرها لي الكلب؛ فقبعت وراء خدعته محبوسًا داخل جدران الشقة.

لا ذنب له أني مغفل. امتعضت من فكرة أن يضحك عليّ بذكائه المحدود، لكن المؤكد أنه أذكى مني بكثير في تعاملات الحياة. لعنت أبي مجددًا في نفسي، وقلت: حتى في هذه جعلني أعاني. حرَّم عليّ حياة الناس والاختلاط بهم، فكبرت على الوحدة والعزلة.

أشرت لتاكسي، وقلت له: مستشفى **ص** بشارع **ج**. المستشفى قريبة من الميدان. رمقني السائق بريبة كأنه يتشكك في قوة عقلي، ثم تركني وانصرف. أوقفت آخر دون جديد. المستشفى قريبة من الميدان، ويبدو أن السائقين خائفون من الذهاب إلى هناك. ليس أمامي إلا محطة المترو. هكذا قررت.

وصلت المستشفى ودخلت لحجرة المكتب. "لا أريد أن يزعجني أحد." قلت للممرض بحزم شديد. زمَّ شفتيه، وهمس في بعض زملائه. أظنهم يتساءلون: "لماذا جاء إذن؟"

وكأنِّي لم أقل لهم شيئًا، بعد لحظات طرق الممرض باب مكتبي، كنت مستندًا برأسي على الكرسي للوراء، مغمض العينين. لم أهتم لطرقاته، كنت أفكر في نفسي التائهة، والحلم الذي تكرر معي لأربع مرات، ولا تتوقف فيه أمي عن تقريعي ولومي. واصل الممرض طرقه بإلحاح أزعجني، فاضطرني أن آذن له بالدخول. يرتدي الممرض قميصًا لبنيًا خفيفًا، ويضع فوق رأسه طاقية من نفس اللون. قال الممرض بتوتر شديد:

- حالة خطيرة يا دكتور.

لم أتحرك من مكاني، ولم أفتح عيني، فظن الممرض أني نائم، فرفع صوته عاليا:

- حالة خطيرة جدا بالخارج يا دكتور.

ببطء فتحت عيني، ونظرت إليه بغضب، كأني أقول له أسمعك، فتراجع الممرض خطوة للوراء؛ خشية أن يتحوَّل الغضب إلى (شخطة) معتادة. اكتفيت بأن لوَّحت له بيديّ أطلب منه بالخروج، فاستدار الممرض، وأغلق الباب وراءه، وقد بدا على وجهه الامتعاض، وإن كان يعلم في قرارة نفسه أنني لن أخرج معه، كما حدث في مرات سابقة عديدة. يعرف أنني لم أعد أهتم بجرحى أو مصابين أو حتى الموتى. كانت حالة الشاب بالأمس استثناء، وربما لو قدر للزمن أن يستعيد تلك اللحظة أن أفعلها. ربما كنت في تلك اللحظة بالذات، تحت تأثير الفتاة، وشيء ما تغير حتى لو للحظات. ربما لو تصدق أنه راودني إحساس ما بأن أقوم. ربما يكون ذلك، لكني أجزم أني أحسسته.

لكن أبدا لن أقوم. لو تفتت العالم ولو نزلت قنبلة ذرية لن أتحرك. كل الحياة وما فيها لم تعد تعنيني. أوصتني أمي بمداواة جراح الناس، فتجاهلت وصيتها تحت ثقل وطأة هزيمتي.

وما هي إلا لحظات حتى انفتح الباب دفعة واحدة، ودخلت فتاة على وجهها الغضب، تشيح بيديها، وتزعق بكلمات متداخلة غير مفهومة، لكنها يقينًا كانت تسبني، وتندد بعدم خروجي. اندفع الممرض وراءها يمسك بيديها، وهي تفلت يديها وتدفعه إلى الخلف. مرّ كل ذلك في لحظات لا تكاد تذكر. لحظات كانت كافية لأن يصيبني الذهول أو قل هو الجنون. جنون جعل رأسي وعينيّ، تتثبت عليها. كل خلجة في جسدي تثبتت كأنني أصبحت تمثالًا، وحده عقلي الذي تحرك بسرعة رهيبة منذ اللحظة الأولى، وأخذ يفتش في ثنايا الرأس المظلم عن النقاط المضيئة، يسترجع وجهًا ما، وملامح ما، مكان ما، وزمان ما. لم تكن رحلة البحث طويلة، ولم تستغرق إلا وقتًا ضئيلًا جدا حتى أنك لا تحسبها من ضآلتها لم تكن.

هل يمكن أن تتكرر الصدفة وبمثل هذه السرعة، أم أنه القدر كان رحيما بي، أم أنها دعوة أمي. نعم! هي دعوة أمي وحلمها. ألحَّت عليّ وقالت بإصرار تحثني أن أخرج من خوفي، وأخبرتني أن الحظ لا يأتي مرتين.

***

الجنون هو أن تبقى مكانك لا تتعلم من أخطائك. يأتيك الحظ مرة واحدة، وإن أفلح جاءك مرة ثانية، أما مرة ثالثة فلا تحلم. عليك أن تتقدم ولا تتردد.

أظنها لم تجيء إلى هنا بإرادتها. قوة خفية هي التي أتت بها. لو كان خيالا ما حدث ذلك. أُقتلعت من مكاني أول ما رأيتها، أو على الأرجح أول ما استعاد عقلي صورتها الأولى التي رأيتها في المظاهرات. جريت نحوها بسرعة كبيرة، فكدت أتخيل نفسي قد طرت. بل بالفعل طرت فوق المكتب حتى وجدت نفسي بجوارها تمامًا. هممت بأن أخبرها بما يدور في عقلي المجنون. وحده لساني غافلني، وسألها:

- أين المصاب؟

أظنها للحظة اندهشت من تغير موقفي المفاجئ. من حالة الرفض الشديد التي أظن أن الممرض أخبرها بها إلى شخص آخر في أوج نشاطه، واستعداده يسأل بنفسه عن المريض.

لم أمهلها أن ترد، أسرعت وتقدمت أمامها وخرجت من الحجرة. تبعتني حتى وصلنا إلى المصاب، كان شابًّا في أول العشرينات، أظنه في السنة الأخيرة من الجامعة، يحمله اثنان آخران، ويبدو الدم واضحًا على قميصه، ينزل من أعلى صدره، حتى سرته.

اندفعت إليه فزعًا، وطلبت منهم بسرعة أن يضعوه على سرير في حجرة الاستقبال. ففككت أزرار القميص بسرعة، وساعدني الشابان الآخران. كانت الفتاة ورائي تماما، أحس بأنفاسها في ظهري، لا تكف عن الأسئلة:

- خيرا يا دكتور.

واضح أن الشاب تعرض لرصاصة خرطوش، ولحسن الحظ لم تكن في صدره. لكنها كانت قريبة.. ناديت الممرضين، وطلبت منهم أن يأخذوه إلى حجرة العمليات. أظنهم ينظرون إليّ غير مصدقين. لا تقلقوا أنا ذات الشخص. ولكن لحظة مفاجئة ومباغتة لي قبل أن تكون لكم. لا تتعجلوا فربما تكون لحظة عابرة. وأرجو ألا تكون.

في تلك الأثناء دخل الدكتور **حلمي** المستشفى، ورأى الشاب النائم على السرير. للوهلة الأولى ظننته سيبدأ بالسؤال عن حالته، لكنه على النقيض ارتبك، وتحركت أوداجه غضبًا، واقترب مني قائلا:

- ماذا تفعل؟

فاجأني سؤاله، وحسبت مفاجأته في التغير المفاجئ لي، إلا أنه لما صاح بصوت عال مهددا:

- يجب أن يخرج من هنا فورًا.. لا نريد أن ندخل أنفسنا في مشاكل مع أحد.

لم أفهم كلامه في البداية، إلا أن الفتاة أظنها فهمت ما يقصده، فاعترضت طريقه قائلة:

- مشاكل مع من.. هذا شاب يموت.

أشاح الدكتور **حلمي** بوجهه، ورد على **مريم** بحدة:

- لا علاقة لنا بكم.. اذهبوا بعيدًا عنَّا.

فهمت في هذه الأثناء أن الأمر يتعلق بالمظاهرات، والدكتور **حلمي** يخشى على وضعه الوظيفي من المساءلة.. هنا تدخلت، وقلت معترضا:

- لا يمكن أن يخرج قبل أن نسعفه.
- اسكت.

ارتفع صوتي محتجًّا:

- لا يا دكتور ليس هذا ما تعلمناه منك.

رمقني باستنكار، يتأكد أني نفس الشخص أمامه، ثم شهق بدهشة:

- **منتصر**.

خفضت صوتي، وقلت بنبرة اعتذار:

- أرجوك يا دكتور. سأتحمل أنا المسؤولية كاملة.

رمقني مرة أخرى مندهشا، وتركني وانصرف.

***

.

كل الجمال فيك

لا شيء يمكن وصفه الآن. أجد نفسي قبالتها تمامًا. وجهي في وجهها. عيناي تنظران إلى عينيها ولها. عيناها بحران من جمال. كل ما فيها جميل، بل هي الجمال ذاته؛ فطفقت أنظر إليها محدِّقًا، رأيت كل الجمال فيها، كأنها توضأت من نهر الجمال، وغرفت كل الجمال فيه، وأخذته كله لنفسها. أخذت أغرف من جمال ملامح وجهها الدقيقة المرسومة بعناية الخالق الذي تجلى فيها: الوجه أبيض مستدير مختلط بحمرة، والعينان واسعتان زرقاوان كموج البحر يعلوهما هلالان محددان كحواجب الإيرانيات، أنف صغير، وفم صغير ممتلئ الشفتين، لونهما أحمر كثمرة فراولة كأنها طلته بقلم روج لتوها. ترتدي فستانًا أزرق، وتعقص ذلك الشعر الذهبي، الذي بهرني أول مرة خلف رأسها.

انسل قلبي من ضلوعي وفارقني، لولا الناس في المستشفى حولي لظللت أحدِّق فيها إلى ما لا نهاية.

أحس الآن أني شخص آخر، بل أشعر أنّي ولدت من جديد. أرى كل شيء تبدَّل حولي حتى المعدات والآلات الطبية، وجوه

الممرضين والمرضى. عادت الألوان تزيِّن كل ما حولي. ها أنا أبصر كل ما حولي مغايرًا عمَّا كان منذ لحظات كأني استبدلت منظار عيني بمنظار آخر.

قالت لي أمي: "ستجد فيها حياتك. سترى الدنيا من جديد". لم أفهم كلامها، وقلت لها: "الإنسان هو شخص واحد منذ أن يولد حتى يموت"

ضغطت على أصابعي، وقالت:

- يمكن أن تبصر نفس الشيء في كل مرة مغايرا عن المرة السابقة. لن تكون السعادة أبدا مثل الشقاء، ولكن يكون اللون الأبيض أبدا مثل اللون الأسود.

حدَّقت فيها مليًّا، لا أصدق ما أسمع. هي **أفلاطون** آخر. لا يمكن أن يكون القليل مما درسته في كتاب الفلسفة يكفي وحده لكل ذلك. نعم هي **أفلاطون** آخر.

قالت **مريم**: "لابد أن أغادر"... هكذا أخبرتني باسمها لما سألتها عنه. "**مريم** اسم رائع. هو اسم السيدة العذراء". قلت لها مبتسمًا. هزَّت رأسها وشكرتني.

أمسكت يدها، وطلبت منها أن تتمهل. قالت:

- عليّ أن أذهب إلى الميدان.

الميدان. هل يمكن أن يكون الميدان ساحة لكل تلك الرقة والجمال؟

حدثتني قبل قليل عن الميدان لما سألتها عن سبب إصابة الشاب. أخبرتني أنها كانت بصحبة مجموعة من الشباب والفتيات في طريقهم إلى الميدان، وبغتة هاجمهم مجموعة من البلطجية..

"بلطجية!" شهقت مذعورا مرددًا الكلمة. أومأت برأسها وتابعت:

- كانوا أكثر من عشرة، يحملون زجاجات المولوتوف، وبنادق الخرطوش. اختبأنا خلف عمارة، وقذفناهم بالحجارة. رموا علينا زجاجات المولوتوف، وأطلقوا علينا رصاصات الخرطوش. سقط **هيثم** وسطنا تماما. (**هيثم** هو اسم الشاب) خرجت من صدره صرخة الألم، وارتمى على الأرض والدم ينزف من صدره. أصابنا الرعب خوفًا عليه. لحسن حظنا كان المستشفى قريبًا. حمله اثنان من الشباب، وجئت برفقتهما. بقي الآخرون يناوشون البلطجية حتى لا يلحقوا بنا.

سألتها ملوِّحا بيدي مستنكرًا:

- وما الذي يدعوكم لكل ذلك؟!

رمقتني بطرف عينيها، ولم ترد. فهمت أن سؤالي لا قيمة له، فشعرت بالحرج. غيَّرت مجرى الحديث، وراحت تشكرني لما فعلته مع الشاب. قالت:

- لولاك لكان في عالم آخر.

تحرَّك داخلي شعور بالفخر والاعتزاز، وقلت لها:

- هذا واجبي.

بانت على شفتيها شبه ابتسامة.. نظرتُ إليها، وأحسست أنها همت أن تقول شيئا ثم ترددت.. سألتها:

- هل تريدين أن تقولي شيئا؟

انفرجت شفتاها بالابتسامة. وويلي من تلك الابتسامة. قالت:

- بصراحة اندهشت من تغيُّر موقفك من النقيض إلى النقيض. من رفض تام ولا مبالاة شديدة أخبرني بها الممرض لما خرج من عندك إلى حالة تحد وشجاعة لصاحب المستشفى.

دون أن أتحكم في نفسي، قلت لها مندفعًا:

- أنتِ السبب.

تورد خداها، وتضايقت من نفسي لتسرعي. رحت اعتذر لها، وقلت:

- أقصد.. هذه حكاية طويلة سأحكيها لك.

تبسمت. وأحسست أني ملكتها، بل هي التي ملكتني.

استأذنت بعد أن أخذت رقم هاتفها. ألحت عليّ أن أذهب إلى الميدان. قالت وهي تودعني:

- أنتظرك هناك.

تابعتها وهي تنصرف. قلت في نفسي:

- حتما سأجيء.

***

الميدان

في صباح اليوم التالي أجدني على حافة ميدان **ت** لا أكاد أصدق نفسي أني فعلتها. أخذت القرار فور أن استيقظت. وفي الشارع أشرت إلى سائقي التاكسي أن يأخذوني إلى هناك. وفي كل مرة يولّيني سائقوها وجوهًا متجهمة كأنني أجرمت حينما أخبرتهم بالمكان. تذكرت ما حدث لي في المرة السابقة، فقررت بعد يأس السير على أقدامي. لم تكن المسافة بعيدة إلى الميدان، فسرت في الشوارع، وشمس الصباح تغمرني، وثمة سحائب صغيرة في السماء. الجو بارد، ولحظي الجيد أنني كنت أرتدي معطفي الثقيل. أخبرتني **مريم** أن المتظاهرين يبيتون في الميدان. قلت في نفسي: "جنون ما يفعلونه.. كيف يتحملون البرد والمطر في العراء؟".

قالت **مريم**، وابتسامة تزيّن فمها: "إرادتهم قوية كالحديد".

في الشارع قابلت أناسًا عديدين في طريقهم إلى هناك.. يحملون أعلامًا وسعادة كبيرة تغطي وجوههم.

اتصلت **بمريم** كما اتفقنا، وأخبرتها أنني أقف على حدود الميدان. جاءني صوتها عذبًا عبر الهاتف، وطلبت مني أن أنتظر.. قالت لي إنه رغم أن عدد المتظاهرين في الصباح الباكر ليس بكثير إلا أنني سأجد صعوبة في الوصول إليها. لذا كان عليّ أن أبقى مكاني أنتظر. سألتني عن المكان الذي أقف فيه، فأخبرتها أنني أقف عند أول شارع **ط** بجوار شركة **م** للسياحة. "أعرف المكان.. سأجيء لك حالا." قالت **مريم** ثم أغلقت الهاتف.

أخذت أتابع عن كثب، الناس في الميدان.. تفحصت الوجوه بتركيز أكبر. كانوا في معظمهم شبابًا: ذكورًا وإناثًا. أدهشني ذلك السور من الأسلاك الذي وضعوه بطول الشارع، وخلفه ثمة شباب يقفون يفتشون كل من يدخل.

جاءت **مريم**، فاستقبلتها بابتسامة كبيرة. مدَّت يدها، ومددت يدي وسلَّمت عليها.

- "خشيت ألا تأتي"..

قالتها **مريم** وهي تتقدم أمامي إلى الميدان.

- "لقد وعدتك.. ولا يمكن أن أخلف وعدي معك."

لا تعرف **مريم** بعد أني متعلق بها حد الجنون، أصبحت أملي الوحيد في الخروج من نفسي المكسورة كطائر صغير فقد جناحيه وعجز عن الطيران.

- "ما رأيك في الميدان والمتظاهرين؟"

سألتني **مريم** وأنا أعطي هويتي للشاب الذي سألني عنها.

- "معجزة كبرى حدثت في القرن الحادي والعشرين أن أكون الآن بينهم."

ضحكت **مريم**، وسألتني:

- "كيف وأنت طبيب كبير؟ وواضح أنك مثقف."

لو تعلمين أني إنسان كنت قبل رؤيتك على مشارف السقوط في غياهب النسيان. وجودي والعدم سواء. لا أعرف أكثر من الشقة والمستَّشفيين اللذين أذهب إليهما عنوة.

- "ما فعلته في المستشفى لا يقل عن الذي يفعله المتظاهرون هنا. وقوفك في وجه صاحب المستشفى يؤكد أنك صاحب شخصية."

لو تعلم **مريم** أن الأقنعة سقطت من على وجه جديد. حسبت أن الدكتور **حلمي** رجلًا نقيًا ومثلًا أعلى يجدر الاقتداء به. لسبع سنوات

قضيتها في الجامعة، وأربع أخرى قضيتها مساعدًا له خُدعت فيه. اشتراه عمي بآلاف الجنيهات. نصف أرباح المستشفى الخاص ثمن لا بأس به. علمت بمحض الصدفة أنني أملك أكثر من نصفها.. عرفت لماذا يعاملني الدكتور **حلمي** بحب أكثر من ابنه. سمعت همسات الطلبة وكلامهم المسموم كفحيح الثعابين. لم أصدق اتهاماتهم التي كانت تسقط فوق رأسي في غدوي ورواحي.

- "أين ذهبت؟"

سألتي **مريم** وقد شردت بذهني عنها قليلا.

- "لا شيء."

تمشَّيت معها في كل أرجاء الميدان، مررنا بالشوارع المحيطة. كانت الشمس ساطعة رغم برودة تلسع الأطراف.. ذهلت لما رأيت جنود الجيش والدبابات تربض حول الميدان كأسود تفترش الأرض وتمد قدميها، ونظرة الثقة والتحدي فيها. كانت أول مرة أراها حقيقة، وألامسها وأحدق في العجلات المجنزرة والفوهات الطويلة. نعم كنت أراهم في طريقي إلى المستشفى. "الجيش. دبابات مجنزرة؟" قلتها مستفسرا باهتمام شديد. حدّقت مريم فيّ طويلا. أعرف السر وراء نظرتها. لم تمهلني أن أوضح لها.

- لولا أنك أخبرتني أنك رأيتني في المظاهرة لقلت إنك كنت في غيبوبة طويلة.

غيبوبة طويلة. لم تكذب **مريم**. وأين أنا كنت؟! ألم أكن في غيبوبة نفسي؟! لا شيء أصعب على إنسان أن يعيش في مكان مجبرًا حتى لو كان ذلك المكان الأرض كلها. سيحطم عقله تمامًا ويفقد وعيه مخيَّرًا حتى لا يدرك ولا يشعر بكل ما حوله. يتحول إلى آلة فاقدة للإحساس والإدراك، يضعون في فمها الأكل والشراب لمجرد أن تواصل.

ربما لا تصدق **مريم** لو أخبرتها بذلك.. في المستشفى، قلت لها إنني رأيتك في المظاهرة.

- "وهل حفظت وجهي وسط كل الآلاف التي كانت تسير؟"

تتساءل **مريم**، وهي تجلس بجواري على مقعد في مواجهة الحجرة التي يرقد فيها الشاب.

- "ولو كنت وسط مليارات سكان الأرض كلها، كنت سأحفظ وجهك. وجهك محفور في عقلي."

قلت لنفسي دون أن أفصح لها خجلًا بذلك. وحتى تثق **مريم** في كلامي وصفت لها ما كانت ترتديه.. تراجعت على المقعد للوراء. يبدو

أنها أحست بالخجل.. اكتفيت بما قلته، ونهضت أدخل الحجرة أطمئن على الشاب.

عبرنا أمام المتحف.

- "سأقص عليك فيما بعد حكايتي لتعرفي سبب جهلي بالعالم وما يدور فيه. أكتفي بما أريد أن أراه وأسمعه. ولا أسمح لأي مخلوق أن يزيد فوق ذلك".

قلت **لمريم** بنبرة حزينة. أومأت برأسها تتفهم كلامي، انحرفت يسارًا، وأشارت إلى مجموعة شباب وفتيات يفترشون الأرض، ويرتشفون الشاي. يبدو أنهم للتو استيقظوا.

سلَّمَت على الشباب والفتيات:

- "إنه الطبيب الذي أخبرتكم عنه"

قالت **مريم** تعرفني بهم. يدق قلبي بعنف فرحا. إذن **مريم** تذكرني في غيابي. إذن هي تفكر فيّ كما أفكر بها. أدور ببصري أفتش عن أمي لتسمع. جلستُ بجوارها، ومدت رجليها. وراحت تحكي لي سبب نزول الجيش.

***

ليلة في ضي القمر

يأتي الليل سريعًا، وتقل معه أعداد المتظاهرين. ليل الميدان مغاير ليس كنهاره. القمر يطل علينا من فوق، تعوقه بعض سحابات صغيرة، لكنه يمر بينها فتتسلل إلينا أشعته البيضاء. أستلقي على ظهري، وأحدِّق فيه. تستلقي مريم إلى جواري. تسألني: "هل تحب القمر؟".. "أعشقه." استرجع ذكريات النجع وبقائي في الجنينة أتتبعه في ليل طويل. تقلق أمي، وترسل إليّ الخفير. "أبحث عن نفسي في ضيائه." يشعر الخفير بالضياع ويقف حائرًا لما أطلب منه أن يخبر أمي بذلك. أتفهم أمره، فأكتب ما قلته في ورقة.

- "وهل وجدتك نفسه فيه؟"

تسألني **مريم** وهي تحدق مثلي في وجهه.

- "بل وجدت القمر نفسه."

أقولها وقد ملت بوجهي أنظر إليها. سكتت **مريم** ولم تتكلم. يبدو أنها أحست بالخجل.

أسمع صدى أصوات الغناء حولنا في كل مكان، وأشعة نيران تتراقص يستدفئ بها المتظاهرون. مثلها توقفت عن الكلام، وعدت مرة أخرى أحدق في القمر.. يقطع الصمت صوت أحد الشباب يلقي قصيدة "لا تصالح." **لأمل دنقل** يخترق صوته صمت الليل، ويأتي إلينا مبللًّا بالندى، وضياء القمر الأبيض.

لا تصالحْ !

..ولو منحوك الذهب

أترى حين أفقأ عينيك

ثم أثبت جوهرتين مكانهما ..

هل ترى..؟

هي أشياء لا تشترى :..

ذكريات الطفولة بين أخيك وبينك،

حسُّكما – فجأةً – بالرجولةِ،

هذا الحياء الذي يكبت الشوق.. حين تعانقهُ،

الصمتُ – مبتسمين –لتأنيب أمكما

وكأنكما

ما تزالان طفلين !

تلك الطمأنينة الأبدية بينكما :

أنَّ سيفانِ سيفَكَ ..

صوتانِ صوتَكَ

أنك إن متَّ :

للبيت ربٌّ

وللطفل أبْ

هل يصير دمي – بين عينيك– ماءً؟

أتنسى ردائي الملطَّخَ بالدماء ..

تلبس – فوق دمائي– ثيابًا مطرَّزَةً بالقصب؟

إنها الحربُ !

قد تثقل القلبَ ..

لكن خلفك عار العرب

لا تصالحْ ..

ولا تتوخَّ الهرب !

نعتدل في جلستنا ونستمع إليه. يدندن عود، ويردد آخر القصيدة مغنيا مع عزف العود، ويردد معه المحيطين به، وتردد مريم معهم أيضًا:

يا بلادي يا بلادي أنا بحبك يا بلادي

يا بلادي يا بلادي أنا بحبك يا بلادي

يا بلادي يا بلادي أنا بحبك يا بلادي

يا بلادي يا بلادي أنا بحبك يا بلادي

قولوا لأمي متزعليش وحياتي عندك متعيطيش

قولوا لأمي متزعليش وحياتي عندك متعيطيش

قولولها معلش يا أمي أموت وبلادنا تعيش

أمانة تبوسولي إيديها وتسلمولي على بلادي

يا بلادي يا بلادي أنا بحبك يا بلادي

يا بلادي يا بلادي أنا بحبك يا بلادي

أنتظر حتى تنتهي الأغنية، وأرى الدموع في عيني مريم.

"الله!".. أعبِّر عن سعادتي التي لم أشعر بها قبل الآن. يبدو أن القصائد والشباب حولي الذين تفرَّقوا في حلقات زادوا من جرأتي.

"هل تعلمين من القمر؟"

باغتُّها مرة أخرى بهذا السؤال، وعيناي تحدقان في عينيها مباشرة.

"ومن هو القمر؟"

قالتها **مريم**، وابتسامتها تبرز الغمازتين عند زاويتي الفم فتزيد جمالها جمالًا.

"أنتِ"

أقولها دون خجل أو كسوف. لم يعد في القلب احتمال لمزيد من الكتمان. قربها مني طوال اليوم شجَّعني لأن أبوح.

لم تولِ **مريم** وجهها عني في هذه المرة.

"هل تعلمين أني رأيتك من قبل؟"

قلت **لها** بنبرة هادئة كاللحن.

ثنت ركبتيها، وكتفت يديها حولهما ثم ثبتت نظرتها نحوي، وسألتني ضاحكة:

- وأين رأيتني؟
- رأيتك في الحلم.

فكَّت يديها، واستندت بذقنها على كفها، وأخذت تحدِّق فيَّ بتركيز شديد.

- في الحلم؟!

تسألني **مريم** والدهشة تملأ صوتها.

- نعم! رأيتك في الحلم. بهيئتك نفسها وبنفس الملامح.

لا تصدق **مريم** كلامي. عيناها تقولان ذلك. ربما تقول في صمتها: "هل اكتشفت أخيرا أنني قابلت مجنونا؟".. لا يمكن لإنسان عاقل أن يصدِّق أنك رأيته من قبل كما هو دون أن تقابله، وتراه بنفس هيئته في حلم. تتحدث معه، وتتعلق حبًّا وتيهًا به دون أن تراه حقيقة. لا يحدث ذلك إلا في الروايات أو مع أصحاب المعجزات.

تعاود **مريم** أسئلتها الحائرة:

- هل تريد أن تقنعني أنك رأيتني بنفس ملامحي في حلم؟

أقسمت لها أن هذا ما جرى.

- نعم! كان ذلك في حلم ورأيته لمرة واحدة، ولم يتكرر بعد ذلك أبدا.

قلت لها مؤكدا أن ذلك حدث، وقصصت عليها حلمي.

تصغي لي **مريم**، وابتسامة لا تفارق زاوية فمها، ولما انتهيت قالت مقهقة:

- ربما تكون هذه جنة الآخرة.

وقفت وتركتها، فقامت ورائي تجري. جذبتني من قميصي وطلبت مني أن أتوقف. استدرت وواجهتها. عاتبتها، فاعتذرت. جلسنا مرة أخرى.

قلت لها إني كنت مهووسا بالبحث عنك أدقق في كل فتاة أراها. في الشوارع لا أكف عن النظر حتى حسبن أني أعاكسهن. لم تسلم طالبات الجامعة منّي، أختلس النظر فيهن، ولم أجد في إحداهن ملاكي. لا يهم أن أتعب في البحث، وأتعرض لإهانات النظر. ذهني مشحون بالصورة، وعقلي يتفجر بالحلم. أمي لا تكف عن تذكيري، ووعد بحياة جديدة يجعلني أواصل. ولا يخلو كل ذلك من حكايات طريفة.

حكيت **لمريم**، فأصغت لي هذه المرة باهتمام:

دخلنا المدرج، وجلست إلى جواري فتاة تطلي شفتيها بلون أحمر قرمزي، وينسدل شعر ذهبي على جاكت أسود، ويفوح منها عطر أخاذ. أخذت أنظر إليها من أسفل عيني. كانت ملامحها قريبة الشبة من الفتاة، فرحت أدقق فيها كأني سآكلها، حسبت أنها لا تراني. ظننت أني كطلاب الأرياف ينبهرون بالبنات اللائي يرونهن لأول مرة. لم تعرف أني أبحث فيها عن الملاك الذي اختطف قلبي وعقلي.

حدَّقت فيَّ للحظة قبل أن تكتم ضحكتها، قبل أن تقول كالساخرة: "ماذا هناك يا...؟".. ولَّيت وجهي بعيدًا عنها، حتى دخل الدكتور، وبدأت المحاضرة، فعاودت اختلاس النظر إليها، فباغتتني بضحكة فاجرة رجَّت المدرج. أحسست بالعرق يتفصد من جسدي، وطفق الدكتور يدور بعينيه في المدرج، يبحث عن مصدر الضحكة، اتفق الطلاب جميعًا ووجهوا نظرهم نحوي، ففهم الدكتور أنني أنا الذي ضحكت. أوقفني الدكتور، وطردني من المحاضرة. لم أشأ أن أدافع عن نفسي، فإذا كان الدكتور لم يميز أن الضحكة أنثوية، فبما ينفع دفاعي. كما أنني شعرت بالذنب لأني كنت السبب لأن تضحك.

جاءتني بعد المحاضرة مع بعض أصحابها، وأرادت أن تعتذر. قبلت اعتذاراها، ولا تدري ما يجول في رأسي، وظللت أبحث عن الملاك دون جدوى.

توقفت بعد ذلك عن البحث ونسيت الحلم وإن كان كامن عقلي لا يبارح كطفيل في مرحة الكمون تعتقد أنه ميت وهو مستيقظ بكل حواسه ينتظر بين لحظة وأخرى اندفاعه للحياة. هاجسه يأتيني بين فترة وأخرى، فأتخيل صورتها من جديد.

***

تصفو روح الإنسان لمَّا يلج القلبَ الحبُّ الخالص، وتنتقي سريرته ويصفو الذهن كلون الغيم الأبيض الناصع.. يرى الدنيا بعين غير التي كان يبصر بها. يتلوَّن كل ما حوله بألوان غير التي يعرفها. ذلك ما كنت أفكر بينما أجلس في الميدان.

مضت ثلاثة أيام لا أكاد أغادر الميدان إلا قليلًا، **ومريم** لم تغادر قط.. أطلب منها أن تذهب لتبيت في بيتها، رفضت بحجة أنها لا تستطيع أن تترك المتظاهرين. ألححت عليها حتى استجابت.

في داخلي أود أن تبقى بجواري ولا تغادر أبدًا، لكن لا يمكن أن أتركها هكذا: ملامحها شاحبة، وتعاني من إرهاق شديد. قلة النوم قد

تعرضها لأمراض شتى. استسلمت على مضض وغادرت بعد صلاة العشاء. خرجت معها إلى مشارف الميدان، وودعتها. أخبرتني قبل قليل أنها ستتدبر أمرها لما رجوتها أن أوصلها. طلبت مني ألا أغادر الميدان حتى أعود. لا يمكن أن أرفض أول طلب طلبته مني. رجعت إلى الميدان أفكر في الأمور التي مضت سريعة ودون أن أوقف مدها السريع. إذا جاء المطر واشتد فلن توقفه مصدات أو موانع. تقول أمي دائما.

افترشت الأرض في منتصف الميدان، وشخصت ببصري أتابع النجوم.

جاء أحد الشباب اسمه **خالد** وجلس جواري. بالأمس كان أمقت إنسان لي. رأيته يقف مع **مريم**، يضحك معها. اشتعلت نيران الغيرة في صدري، وتأهبت للاشتباك معه. تراجعت، وقلت في نفسي: وبأي حجة سأشتبك معه. نادتني **مريم**، وقالت تعرفني به:

- **خالد**. ابن عمتي.

مدَّ يده، فصافحته. تنظر **مريم** في عيني، وتقول بابتسامتها الرائعة:

- **خالد** قرر أن يعقد خطبته في الميدان، وهو يدعوك لأن تكون أول المدعوين.

أشعر بالحرج الشديد من نفسي.. هل قرأت **مريم** ما يدور في صدري؟.. صافحته مرة أخرى بحرارة أكبر، وعانقته. همس في أذني:

- يبدو أن **مريم** الصلبة تحبك.

مرة أخرى تحرَّك قلبي بين ضلوعي، وأوشك أن يخترقها ويقفز.

لم تحن فرصة لأساله عن سر تسمية **مريم** بالصلبة. دون مقدمات أساله بابتسامة:

- لماذا تدعون **مريم** بالصلبة؟

ربت **خالد** على رجلي، وتكلم بهدوئه المعتاد:

- **مريم** قوية وعنيدة. لا أحد يمكن أن يخترق عقلها بسهولة. ما تؤمن به تفعله دون انتظار. حياتها جادة رغم الترف الذي تعيش فيه. أوقاتها جميعها تقضيها في العمل الخيري والمظاهرات. ظننا أنه لا وقت في حياتها للحب.

يحكي **خالد** وأنا استمع له بعقل صاف. كلما يمضي بحكايته عنها إلى الأمام، أتقدم معه بخطوات أكبر لاستعادة ثقتي في نفسي بصورة أكبر. بل أجزم أنني ولدت من جديد شخصًا آخر.

أنهى **خالد** كلامه، واستأذنني في النوم. شكرته، وأغمضت عيني. لم يبق غير ساعتين على الفجر. أشعر بالنوم ثقيلًا يزحف إلى عينيّ. أغمض عينيّ وأخلد للنوم سريعًا.

في الصباح الباكر وجدت **مريم** تقف فوق رأسي وتوقظني، حتى حسبت أنها لم تغادر الميدان، ومكثت في مكان آخر قريب تبيت فيه.

استيقظت صافي الذهن لا أشعر بمطاردة كابوس. لليلة الثانية لا يهاجمني كابوس واحد. أسلِّم على مريم، وأسألها عن سر رجوعها باكرا.

- لم تمض غير ساعات قليلة في البيت؟!.

تصب لي كوب شاي من إبريق أحضرته معها. أعطتني قطعتي (توست) بالمربى. أشكرها، فتومئ برأسها.

- ألم تكن ترغب في حضوري سريعا؟

أتلعثم في الرد عليها، لكن أستجمع أنفاسي الحارة، وأهمس إليها:

- لو بإمكاني أن تبقي أمامي طوال العمر لفعلت.

تقف **مريم** وتصب أكواب شاي لبعض الرفاق الذين جاءوا سريعا والتحقوا بنا.

قطعت حديثي مع **مريم**، وتكلمنا في أمور الميدان وما جدَّ به. ما أحرزه المتظاهرون من تقدم والخطط القادمة.

ظل الحديث ترتفع وتيرته وتنخفض. كل رأي له حجة تدحضه، ولا نتفق في قرار إلا بصعوبة.

رنَّ هاتفي فأخرجته. بتمهل أتفحص الرقم على الشاشة. عمي يطلبني أكثر من خمس مرات في الأيام الماضية. يشعر بالقلق الشديد عليّ، ولولا أمور ملحة تمنعه لحضر منذ أول يوم بعد المظاهرات. لكن لم يطلبني أبدا في الصباح الباكر.

أخفي عليه الحقيقة ولا أقول إنني في الميدان. سيفزع إن أخبرته بذلك. في كل مرة يتصل بي لا أرد عليه. أرسل له رسالة أخبره أنني مشغول بإجراء عملية. أنتظر الوقت المناسب وأتصل به حتى لا يسمع أصوات الهتافات.

أفتح الخط، فيأتيني صوته عبر الهاتف قويًا وموبخًا:

- تكذب مرة أخرى عليّ يا **منتصر**. تظن أنني لن أعرف الحقيقة.

أحاول أن أقاطعه؛ أدافع عن نفسي. لا يسمح لي، ويضيف بحدة أكثر:

- أخبرني الدكتور **حلمي** بما فعلته. وعرفت من **مهران** أنك تتظاهر.

مهران نقمتي وقدري. جاسوس لا يردعه مال. آخذ جانبًا يخلو قليلًا من المتظاهرين، وأشير **لمريم**. تتبعني، وعمي يواصل مكالمته الساخنة كلسع نار. بصعوبة تمكنت من مقاطعته. قلت له إني لن أرد عليك بنفسي. أعطيت الهاتف **لمريم**. أشارت إليّ بغضب تسألني: "من؟" قلت لها: "عمي يريد أن يسلِّم عليك". لم أخبرها بالحقيقة، واكتفيت أن تصد عني الهجوم. أتابع **مريم** وهي تحدث عمي لدقيقتين، قبل أن تعيد إليّ الهاتف. تغيرت نبرة عمي إلى النقيض. سألني:

- من **مريم**؟

أجيب عمي بسعادة:

- إنها أجمل فتاة.

أبصر عمي عبر الهاتف يقف مذهولًا يتدلى شدقاه لا يصدق ما يسمع.

- "ولو رأيتها ستظن أنك في وجه القمر."

أضيف لعمي، **ومريم** تتوعدني.

- هل أنت **منتصر** ابن أخي؟

يسألني عمي غير مصدق؛ يعرف عمي ما مررت به بعد موت أمي. يعرف حالة اليأس التي أغرقتني في بحورها، وتلاطمتني أمواجها. حاول معي كثيرا أن يخرجني من تلك الحالة بقدر ما يستطيع، لكنه فشل أن يعيدني (**منتصر**) الذي كان قبل موت أمي. كأنه يتساءل متى وكيف؟ وبهذه السرعة. قبل أسبوعين كان في زيارتي، وأنَّبني كثيرًا لما رأى زجاجات البيرة الفارغة. هزَّ جسدي هزًا عنيفًا، ووبَّخني. قال لي قبل أن يسافر:

- لو جئت في المرة القادمة ووجدتك على حالتك نفسها سيكون لي معك تصرف آخر.

نسى عمي حديثه عن المظاهرات، ولم يطلب مني أن أغادر الميدان. لا يمكن أن يطلب مني أن أترك ما وجدت فيه نفسي.

***

ستبكي طويلا حتى في لحظات فرحك

أفكر في الذهاب إلى شقتي. ملابسي اتسخت وأحتاج إلى ملابس جديدة. أيضا أحتاج لترتيب بعض الأمور التي أقلقها بقائي في الميدان. قلت **لمريم**: "أنا ذاهب إلى الشقة". فاجأتني أنها تريد أن تأتي معي. زاد افتتاني بجرأتها، وتدفقت فرحة كماء النهر إلى قلبي.

انسللنا بصعوبة من بين المتظاهرين الذين وضعوا المتاريس وأجولة الرمال كسواتر أمام كل مخارج الشوارع، وتطوَّعت مجموعة من الشباب يدققون ويفتشون الداخل إلى الميدان يرصدون كل حركة، كأنهم يتوجسون لهجوم مرتقب.

في أثناء سيرنا تحدثت مع **مريم** عن الثورة والميدان واليومين اللتين أمضتهما معي. لا تخشى **مريم** أن تتحدث بالحقيقة ولو كانت موجعة. سألتني بصراحتها المعتادة ليلة أمس:

- هل بقاؤك في الميدان من أجلي أم من أجل أهدافنا النبيلة؟

- ربما كان ذلك في الساعات الأولى لدخولي إلى الميدان. لكن بعد أن صرت موجة في البحر العتي. تغير شيء هائل بداخلي، وكنت أشعر أنني أتعرض لعملية تحويل تجرى في مكان خفي.

أقول لمريم دون أن أكذب.

- إيمان كامل تولَّد داخلي بكل ما تهتفون به، وشعرت أن قيمتي هنا، ولا مكان آخر.

أضفت **لمريم** وهي تستمع لحديثي، بينما نتابع بضعة شباب يضع كل منهم يده فوق كتف الآخر، ويمدون أرجلهم الأمام كأنهم يلعبون الحجلة.

قلت لمريم بثقة:

- ألا تعرفين أن أمي مناضلة كبيرة. علَّمتني كره الظلم والبحث عن العدل.

تصغي **مريم** بافتتان لحديثي عن أمي. أواصل كلامي وأحكي لها قليلا عن حياتها ومعاناتها.. تهز رأسها بإعجاب، وتقول بابتسامة:

- ليتني رأيتها.

تدحرجت دمعة من عيني، وأنا أواصل حديثي عنها. حاولت مريم أن تخفف عني، فقالت بذكاء شديد:

- أي يد أمسكت بها أمك.

أنظر إليها مشدوها، تضع يدها على خدي، فارتج جسدي كله. أضافت:

- ألم تقل إني كنت معها وتمسك بيدها؟

ضحكتْ وضحكتُ.

واصلنا الطريق، وتطرَّق بنا الحديث إلى مواضيع شتى، وفي غمرة الكلام تذكَّرت **علاء وممدوح**، فخبطت على رأسي ألوم نفسي بشدة. كيف لم أسأل عنهما، وشعرت بالضيق أكثر كيف لم يسألا عني. شُغلتُ **بمريم** عنهما، فما الذي شغلهما عني؟!

أسرعت وأخرجت الهاتف من جيبي، وطلبت **ممدوح**، فوجدت هاتفه مغلقًا. كررت ذلك مع **علاء**، وكان هاتفه مغلقًا أيضًا.

زاد القلق في صدري، فلاحظت **مريم** ذلك، فسألتني:

- هل هناك شيء؟

أخبرتها بشأن **علاء وممدوح**، وقلت لها:

- لست مطمئنًّا.

حاولت أن تهدئني حتى وصلنا العمارة. رفعت رأسها عاليًا تتفحص العمارة القديمة التي ترجع إلى الثلاثينيات. دخلت العمارة، فاستقبلني **مهران** مهللا:

- حمدًا لله على سلامتك يا دكتور.

رأى **مريم** معي، فزرَّها بجانب عينيه نظرة فهمت مغزاها، فحمَّرت له عيني، فكمش في مقعده متخاذلًا.

صعدنا السلالم، وصعدت خلفي **مريم** تشهق، وقالت تحاول أن تلتقط أنفاسها بصعوبة:

- لا أعرف سر عدم صعودنا بالمصعد.

قلت لها، وأنا أمد يدي لأمسك بيدها أحاول أن أساعدها في الصعود:

- إنه مصعد، البُعد عنه فوز وغنيمة.

دخلت الشقة، وتبعتني **مريم**. اتجهت إلى حجرة نومي، بينما أخذت **مريم** تجول في الشقة تستكشفها، تتحرك ما بين الصالة الواسعة

والحجرات الأربع، والممر الطويل المفضي إلى المطبخ والحمام، ثم عادت إلى الصالة.

لامست بيدها تمثالًا لحصان يقف على إحدى قائميه، مسنودًا على منضدة في ركن الصالة، وبجواره مزهرية خالية. عاينت اللوحات الأثرية المعلقة على الجدران، ووقفت طويلًا أمام صورة بالأبيض والأسود لرجل حاد الملامح له أنف أفطس، وعينان يشع منهما قوة كأنهما نابضتان بالحياة. للحظة خافت منهما، بانت لها أنها أقرب في الشبه لي، وبجوار الصورة لوحة لبيت على جرف يطل على بحر، تتدافع تحته الأمواج، وخلف البيت حديقة مترعة بالأشجار والورود.. شهقت لها إعجابًا..

في تلك اللحظة كنت أقف عند الباب أتابعها. حاولت **مريم** كتم ضحكة.. سألتها عن سرها. أشارت إلى اللوحة والصورة، وقالت بنبرة ساخرة:

- شتَّان الفارق بينهما.

قلت **لمريم** مازحا:

- خذي بالك.. روحه تحوم في الشقة.

ردت عليَّ مقهقه:

- أنا أشعر بذلك.

لاحظت **مريم** الفوضى العارمة وزجاجات البيرة والمياه المعدنية الفارغة، وأعقاب السجائر التي تجعلها أشبه بمقلب زبالة، وملابسي المرمية في كل مكان، فقالت:

- واضح الدمار في شقتك.

سكتُّ، فتابعتْ:

- ومع ذلك شقة أثرية ورائعة. كيف حصلت عليها؟

حرَّكت كلماتها الشجون القديمة في صدري.

دخلت على أبي، فوجدته جالسًا مع عمي في المندرة الكبيرة، ولا أحد سواهما، ووجهه الجامد كأنه وجه من شمع، أسفل أنفه المفلطحة شارب كث يزيد من مهابته، عيناه حادتان يلمع فيهما الشرر كالجمر. سألته أن يعطيني مفاتيح الشقة. لفحني بنظرة عينيه القويتين، ووجهه المتجهم. سألني بكل غلظة في صوته:

- مالك بها؟

خرج صوتي متهتهًا، وكأنِّي فقدت قدرتي على النطق. دائما ما أفقدها أمامه:

- أررررريد.

لم أستطع أن أكملها، فتكفَّل عمي عني قائلا:

- يريد أن يسكن فيها في **ق**.

لم تبارح عيناه وجهي، وواصل رميه لي بالكلمات المارقة لصدري كسهام:

- لا أريد أن تذهب إلى هناك من الأساس.. فهل أعطيك الشقة؟ تظن نفسك أنك ستصبح درَّاح (يقصد جرَّاح).

تدخَّل عمي سريعًا، ولم يسمح لأبي بمزيد من التمادي في شتمي وألفاظه التي تصغرني إلى أقل صرصار؛ كان لعمي كلمة مسموعة عند أبي لا يثنيها ولا يرفضها مهما كانت. هي أيضا من عالم الأسرار حول أبي الذي تعجز عن كشفه. كيف لذلك الرجل الذي يخافه الكبير والصغير، والذي يصعب ترويضه أن يصبح مستأنسًا أمام عمي؛ ربما لأن جدي أوصاه به قبل أن يموت، فهو الأخ الذكر الوحيد دون خلفة البنات التي رزق بها جدي. ربما لقوة خفية في عمي لا يراها سوى أبي.

لا يهمني في ذلك كله إلا أن الله حباني بعمي الذي يحبني مثلما لا يحب أب طفله، وهذا كان من تهوين عذابي وتخفيف الألم الذي يحاصرني.

خار أبي وانهارت قوته التي كانت منذ لحظات وانطفأت كجمر متأجج ينطفئ وتخمد قوته بالماء.

غمغم بكلمات غير مسموعة لكنها بدت رفضًا مكتومًا لما قاله عمي، ثم أخرج سلسلة المفاتيح من جيب الصديري، ورمى بها على الأرض.

وقف بعدها وتركني وعمي. وقف عند باب المندرة، وقال لعمي محتجا:

- لا أحد أفسد هذا الولد إلا أنت.

ضحك عمي، وضحكت أنا.

التقطت المفاتيح، ورميت نفسي في حضن عمي، وخرجت مني الدموع، وقلت ناشجًا:

- لا أعرف من غيرك ماذا كنت فعلت؟

مسَّد عمي شعري، وقال حانيا:

- يا ولد.. استرجل!

كنت أحب أن أسمع تلك الكلمة منه. كنت أحس أنه الأب الحقيقي، والأخ الذي لم أعرفه في إخوتي الذكور الثمانية الذين صاروا في ركب أبي.

قال عمي مشجعا كدأبه معي:

- لابد أن تتعلم وتصبح أكبر (دراح).

قالها بنفس اللهجة التي قالها أبي، فانفجرت من الضحك.. ولمحت الدموع في عيني أمي التي كانت تقف عند باب المندرة.

شددت جسمي، وقلت باعتزاز **لمريم** مرخمًا صوتي:

- هذه العمارة كلها ملك لنا.. اشتراها جدي من زمن بعيد.

شهقت **مريم**:

- ياه.. واضح أنكم أغنياء جدا. إذن. لم تعايرني بغنى أبي.

رغم فرحتي بوجود **مريم** معي إلا أنها ما كادت تذكرني بثراء أبي حتى أحسست بالضيق الشديد. قلت لها:

- أنا أكره غنى أبي.

تابعت منكسا رأسي:

- حتى هذه العمارة أكرهها ولولا حاجتي للشقة ما بقيت فيها للحظة.

شعرت **مريم** بالندم لما رأت تغير ملامحي، فعقدت حاجبيها، وسألتني بشغف:

- أحسست أنك حزنت لمَّا ذكرتك بغنى أبيك.
- أكره غنى أبي

صمتُّ للحظات، وأضفت:

- أكره أبي.

***

- لم تكره أباك؟
- ولم أحبه؟
- كان يجب عليك أن تبحث عن جانب منير فيه، وتحبه من أجله.

بحثت طويلا، وراجعت شريط حياتي الطويلة منذ ولدت، ووجدت أنه لم يداعبني يوما، حتى أنه لم يضحك لحظة في وجهي. وجهه دائما جامد كالحجر، قلت لنفسي:

- ربما هو معذور، فإخوتي كثر، فإن داعب؛ يداعب من ويترك من.

حتى في هذه فشلت.

سقطت الكرة من يدي، ودخلت المندرة الكبيرة، كان أبي يجلس على الدكة، قابضًا بيديه على رأس العصا، التي تشبه رأس ثعبان، شامخًا رأسه إلى أعلى، وعيناه تبرقان بالغضب الوهاج. كان أكثر من عشرين رجلًا يجلسون حول أبي على الدكك المفروشة بمراتب قطنية، وخلف ظهورهم وسائد من القطن، لا يتكئون عليها، منكسين رؤوسهم إلى الأرض، وجوههم متجهمة، وبرزت العروق منها تنطق بالكشر كأنهم فقدوا عزيزًا عليهم. كانت سحائب الدخان ضبابية تدور في جو المندرة. تدحرجت الكرة، ووقعت أسفل المنضدة التي تتوسط المندرة. دخلت لأخذها، سمعتهم يترجونه أن يخفف في الإيجار، ولكنهم لزموا الصمت لما رأوني. زعق أبي في:

- أخرج من هنا يا ولد.

كانت زعقته قوية رجت جدران المندرة المطلية بزيت ذهبي اللون، وزادت الخوف في قلوب الجالسين، وللمرة الثانية أبول على نفسي، وخرجت جاريًا أود أن تبلعني الأرض وأموت.

اندفع عمي ورائي، ولحق بي. هتف فيَّ أن أتوقف. تسمَّرت مكاني، أخذني في حضنه، وقال لي، يربت على ظهري، يخفف من أحزاني:

- لا تحزن يا ولد. أبوك غاضب قليلًا.

قلت، وصوتي يختنق من البكاء:

- **حامد وعلي وسلامة** جالسين.

قبَّلني في خدي، ورد قائلًا:

- أنت صغير، وهؤلاء إخوتك الكبار.

تبسَّم عمي، ودغدغني في بطني محاولًا أن يضحكني، ولكن الطفل الصغير كره الضحك، فقال:

- انتظر. سأجيء لك بالكرة.

قلت له باكيا:

- لا أريدها.

واندفعت بعدها جاريًا قاصدًا أمي.

قلت لعمي في يوم آخر:

- أبي يكرهني.

لامني، وقال يحاول أن يدافع عنه:

- أبوك يحبك.

كان الشك يتراقص في عينيه، ولم أرد عليه. دخلت عليه الجنينة، وكان جالسًا وسط أبي وإخوتي على الدكك كأنهم يرتبون لشيء ما، وأمامهم طبق مملوء بالعنب والجوافة موضوع على منضدة.

تبسَّم عمي أول ما رآني. وكان يعرف أني ذهبت لأعرف نتيجتي في الثانوية. استقبلني قائلا:

- هه.. سبع أم ضبع.

رمى أبي خرطوم الشيشة من يديه غاضبا، فتذكر عمي اسم أبي، ووضع يده على فمه يداري ضحكته. بحلق إخوتي في عمي، فيما قال أبي متضايقا:

- وماله **الضبع** يا **كمال**.

انفلتت الضحكة من عمي رغمًا عنه، وحاول أن يبرر لأبي:

- لا أقصد. هذا مجرد مثل.

سكت أبي، وعاد وأمسك وشدّ خرطوم الشيشة، وقلت في صمتي: "لو قالها أحد غير عمي لقامت الدنيا ولم تقعد، وطارت فيها رقاب".

عاد عمي لحديثه معي:

- هه.. بشَّرني.

قلت له بفرح شديد:

- فعلتها. الأول على المحافظة.

اندفع عمي واقفًا، وفتح ذراعيه يأخذني في أحضانه، وقال بفرحة شديدة:

- رجل يا **منتصر**. طوال عمري أقول إنك رجل وستفعلها وترفع رأسي.

رأيت الحزن في عيون إخوتي، أما أبي فكان وجهه ساكنًا لا تبدو عليه علامات فرح أو حزن تتحرك عليه ظلال أوراق الشجر.

شدَّني عمي، وأجلسني إلى جواره، ونظر إلى أبي وإخوتي، وقال لهم بنبرة تأنيب:

- مالكم أصابكم الخرس. ألن تقولوا له مبروك.

قال أبي من بين أضراسه:

- مبروك!

أما إخوتي، فكأن على رؤوسهم الطير سكتوا ولم ينطقوا.

سألني عمي:

- وعلى أي شيء نويت؟

شملتهم بنظرة واحدة، قبل أن أقول:

- كلية الطب!

لم أكد أقولها، حتى انتصب إخوتي واقفين، يطوِّح كل منهم طرف جلبابه كأنه وقع لهم قتيل، وانسحبوا واحدًا تلو الآخر، أما أبي قال موجها كلامه لعمي:

- طب! ألا يكفي ما تعلَّمه. يجب أن يبقى ويرعى الأرض مع إخوته.

لم يرق الكلام لعمي، فعقد حاجبيه متضايقا، وثار في أبي:

- وهل تظن أنهم سيتركونه يرعى الأرض معهم؟

قال أبي معترضًا:

- ماذا تقصد يا **كمال**؟
- أقصد ما تعرفه.

- أولادي يحبون بعضهم.
- وهل فعلت ما يجعلهم يحبون بعضهم البعض؟

كزَّ أبي علي أسنانه، وهبَّ واقفا، وضرب الأرض بعصاه، فطارت ثلاثة (زرازير وقمرية) من على الشجرة، وقال باستياء شديد:

- كلامك مثل الأحجار.

قالها، ثم انصرف.

قلت لعمي:

- ألم أقل لك أنه لا يحبني.

ولم تعرف مريم ماذا فعل أبي بأمي ليترسخ كرهي له.

***

ساحة للمعارك

لا شيء يمكن وصفه في الميدان إلا أنه تحول إلى ساحة حرب كالمعارك القديمة تجري فيها الجمال والخيول. المتظاهر,ن يتدافعون في كل مكان، وأصوات الخرطوش لا تتوقف.

وقفت **مريم** للحظة كالبلهاء لا تعرف ما الذي يجري، ووقفت مذهولا من بشاعة ما أرى. تسمَرنا كتمثالين، قبل أن نستفيق من ذهولنا، وندخل الميدان وسط الصراخ والتدافع وأصوات الرصاص. تقدمت بحذر وطلب من **مريم** أن تحرص في تقدمها. كان الشباب يطرقون على الصفائح، يحاولون ترتيب الأوضاع من جديد، ولكن منظر الدماء التي سالت، وجرت على الأرض لم يدع لهم فرصة.

زاد الأمر سوءًا لما جاءت مجموعة أخرى من فوق كوبري أ، وأخذت ترمي المتظاهرين بالأحجار وزجاجات المولوتوف، فبادلهم المتظاهرون رمي الطوب.

حاولت بقدر ما أستطيع أن أحمي **مريم**، التي أخذت تصرخ، وهي ترى الشباب الواقع غارقا في دمائه:

- يا ليتني ما تركت الميدان.
- وهل كان وجودك سيفرق؟

قلت أحاول أن أهدئ **مريم**.

كانت المناظر بشعة أكبر من أن يتحملها إنسان له قلب. انفعلت وانتابتني حالة هياج. تقدمت إلى الصفوف الأمامية، وأخذت أرمي بالأحجار، لكن في لحظة تذكرت أن دوري لم يكن في رمي الأحجار، ولكن في المستشفى الميداني أعالج المصابين.

التحقت بالمستشفى الميداني بجوار مسجد **ع**، وجاءتني الحالات متعددة الإصابات ما بين خرطوش في العين أو حجر في الرأس أو شظية زجاج تنغرز في اللحم.. كانت الوجوه حولي مكتئبة، وظلال الوجوم تحوم عليها. كانت **مريم** واقفة تراقب بعصبية شديدة، تضرب بيدها على جدار المتحف. هتفت فيها أن تهدأ، لكنها لم تستطع مع توالي الحالات الحرجة: شاب يتلوى أمامي كشاة مذبوحة، أركض إليه بسرعة. صدره بركة دماء، ووجهه أسود كأنه يحترق. جفناه يرفرفان كجناحي طائر، ويلتقط أنفاسه بصعوبة. ارتميت عليه أحاول أن أسعفه،

لكنه كان أسرع مني، وأغمض عينيه. بكيت وفي وجهه رأيت مرة أخرى وجه أمي، فأحسست بأن الدنيا تهرب من بين يدي.

عليك أن تتمالك نفسك وتستعيد ثقتك. الوقت يجري، والنزيف حولك لا يتوقف. عليك أن تتمكن من ذاتك وتحاول مجددًا. السماء فوقي ملبدة بالغيوم، والأرض تحتي دم يجري. تشعر بالغليان يجري في عروقك، وتصرخ بقوة حنجرتك: حرااام.

لكن هناك آخرون يستنجدون بي. أستفيق من أفكاري القاتمة، أهرع عليهم، وأحاول بعزم ألا أفشل هذه المرة.

تبكي **مريم** ولأول مرة أرى دموعها. الوقت لا يسمح بمزيد من الصلابة. حتى الحديد يلين في لحظة.

أداوي الشاب، ولكن لا يشفي ذلك هيجاني. أسير بين الموتى والمصابين مشتتا. تقفز عيناي من مجراهما. أحدِّق في الراقدين متفحصًا. أعرف هذين الوجهين. أدقق أكثر وأكثر، وأقترب منهما حذِرًا كأنني أجفل من الاقتراب. لكنني أحث قدمي وأهرع نحوهما. أستفيق من صدماتي على صدمة جديدة، وأخشى أن تكون صدمتي الأخيرة.

***

في الشدة تظهر المعادن

بعد أسبوعٍ كامل من العيش وحيدًا في الحجرة بالمدينة الجامعية، انضم إليّ **علاء وممدوح**: **علاء** طالب بكلية الآداب ويسبقني بعام، أما **ممدوح** فطالب بكلية الحقوق.

كانا من الأرياف مثلي، ولهجتهما مثلي لا تحاكي لهجة أهل مدينة **ق**، ويعانون ما أعانيه لما نتكلم، متمسكين بلهجة بلادهم التي جاءوا منها.. ظللت شهرًا كاملًا معهما في الحجرة، أتحسس القرب منهما، ولكن لحظة فارقة جعلت منهما صديقين، لا يفارقاني أبدا.

استيقظت مخدرًا بالألم أرفع جفنين متثاقلين كأنما معلق فيهما حجرين، أتبين الوجوه الجالسة أمامي، كان ثمة وجه أعرفه حاولت جاهدًا أن أحرك لساني، لكن الظلام عجَّل من هجومه، وأغرقني في بحره ثانية.

بعد وقت طويل استفقت للمرة الثانية، وكنت في تلك المرة أكثر قوةً وصفاءً، فتبينت وجهي **علاء وممدوح**، والإرهاق تطوف ظلاله عليهما، همست بوهن:

- أين أنا؟

اندفعا نحوي، وجلسا على حافة السرير، وهتفا في بلهفة:

- حمدا لله على سلامتك.

كانت الخراطيم معلقة في ذراعي، وأحسست أن جسدي مكسر كأنه سقطت عليه صخور الجبل الراسخ منذ الأزل عند حدود النجع.. سألتهما باهتمام:

- ماذا حدث؟

ابتسم **علاء**، وحاول أن يهدئني قائلا:

- سنخبرك فيما بعد.

بعد ثلاثة أيام خرجت من المستشفى، وعرفت من **علاء وممدوح** أنني تعرضت لتسمم في معدتي إثر وجبة فاسدة أكلتها في مطعم الجامعة، وسقطت بعدها مغشيا عليّ.

لا يهمني في ذلك سوى أني اكتسبت صديقين، عرفت فيهما الإخلاص، ولم يتركاني للحظة في المستشفى. سألتهما عن سبب عدم اتصالهما بعمي، فأجابني **ممدوح** كأنه يلومني:

- وهل نحن لا ننفع؟

سكتُّ، وكان سكوتي هو بداية الصداقة بيننا، ورفضت بعد واقعة التسمم أن أبقى لدقيقة واحدة في المدينة الجامعية، كما أني كرهت رتابة العيش فيها، والتضييق فيها وكأني سجين، وما كان لي أن أترك النجع والعيش فيه، وأسُر أبي، لأرضخ مخيَّرًا لسجن جديد.

عُدت إلى النجع ولم أرجع إلا بمفتاح الشقة في يدي. ألححت على **علاء وممدوح** أن يأتيا معي، رفضا في البداية، تحججا بعدم التضييق عليَّ، ولما زادت إلحاحي وإصراري، تركا المدينة، وسكنا معي الشقة.

أصبح **علاء وممدوح** بعد ذلك رفيقيّ في كل شيء: يفرحان معي لما أفرح، ويشملهما حزني لما أحزن. يفهماني وقتما أبوح لهما بأحزاني، ولم يطمعا في غناي لما عرفا أني كاره له.

سارت الحياة معهما في الشقة سهلة، وكانا عونًا في السنوات التي قضياها معي الشقة، حتى لما ماتت أمي، لحقا بي، وظلا معي أيام الحداد كاملة في النجع.

***

تقع عيناي على وجهي **علاء وممدوح** الممددين على أرض الميدان، والدماء تنز من الجروح العميقة، دفعت نفسي متخطيًّا بعض الأطباء والمصابين، وأخذت ألوي رقبتي كبطة تعافر من أجل الحياة. أنزل بركبتي على الأرض، ولساني يلهج بالدعاء حتى لا أسقط في بئر التيه من جديد. أدقق النظر في وجهيهما، وأسمع دقات قلبيهما أتأكد أنهما لا يزالان على قيد الحياة.

يأتيني صوت **علاء** متحشرجًا وواهنًا كأنه يخرج من ناي قديم:

- لا تخف. عمر الشقي بقي لا تقلق لن نتركك تظفر بالدنيا وحدك.

ترمش عينا **ممدوح**، وتنفرج شفتاه عن ابتسامة بالكاد تظهر ثم تختفي، ويخرج صوته أكثر وهنا:

- يعتقد أننا سنتركه.

آخذهما في حضني، فيتلوَّن قميصي بالدم.

كانت جروحهما غائرة، ولكنها لم تكن قاتلة. حمدت الله في سري، وقلت لنفسي:

- أنا لا أقدر على تحمل صدمة جديدة.

أداوي جراحهما، فيصفو ذهني، ويستعيد من جديد نطاق التفكير. أفكر بعمق ما الذي جاء **بعلاء وممدوح** إلى هنا. حياتهما لا تعرف غير اللهو والمجون. أسخر من نفسي:

"وهل كنت أنا مهتما بالمظاهرات أو حتى أعرفها؟"

يقطع تفكيري صوت **مريم** تناديني. أهرع إليها، وتطلب مني أن أسعف مصابا جديدا. ألف الأربطة حول جراحه، وعقلي مشحون بالتفكير في نفسي **وعلاء وممدوح**.

أخرجتني **مريم** من يأسي، فأي شيء يدفعهما لذلك؟

في اليوم التالي أخبرني **علاء وممدوح** لما استعادا قوتهما، أنهما ما كاد يخرجان من الشقة أخر ليلة كانا معي حتى قابلتهما سيارة شرطة، ونزل منها الضابط يكشر عن أنيابه كأسد يجهز نفسه لالتهام فريسته، وزعق في العساكر آمرا:

- أحضروا لي هذين الولدين. الظاهر أنهما من الأولاد إياهم.

قال **ممدوح**:

- أقسمت للضابط أننا لم نفعل شيئا. ظننت أنه للوهلة الأولى أراد أن يقبض علينا لما وجدنا نترنح، وشك في سكرنا، ولكن لما عرفت أن سبب غضبه العارم، أنه ظن أننا من شباب الميدان الذين يدعون للمظاهرات، رحت أقسم له ألا شأن لنا بذلك.. لكن الضابط لطمني على خدي، وصرخ في العساكر، الذين تحلقوا حولنا، وكتفوا أيدينا، وجرونا جرًّا إلى الصندوق الخلفي للسيارة، ووجدنا نفسينا بين شباب آخرين يختنق بهم الصندوق. أخذنا الضابط إلى قسم الشرطة، وهناك تركنا للعساكر غنيمة سهلة يكافئ من يأتيه مهللا: "ضربت خمسة وحدي يا باشا ولم أتركه إلا لما قال أنا مرة".

نزلت الدمعة من عيني **علاء وممدوح**، وقالا بتأثر بالغ:

- أُهنَا بشدة يا **منتصر**.. كان أسود يوم في حياتنا.

كانت تسمع **مريم** حديثهما، فتأثرت بشدة، وضمَّت شفتيها حتى أصبحا كحلقة صغيرة، قبل أن تقول بعصبية:

- يبدو أن الإنسان ليس له قيمة لديهم.

وأردف **علاء** قائلا:

- لم نكن نعرف ما الذي يجري بالخارج.. في الليلة التالية جاءت أصوات من خارج الزنزانة كمعركة محتدمة، طلقات رصاص تدوي بقوة. وطرق شديد على أبواب القسم. بقينا في خوفنا حائرين لا نعرف ما يدور. وفجأة دخل الناس علينا. وقالوا لنا: اهربوا. لبثنا في أماكننا ولم نتحرك. ولما خرج كل من معنا في الزنزانة خرجنا من السجن وراءهم. لم يكن أمامنا إلا الهروب. وحين تغلبنا على الخوف، عدنا إليك، وصعدنا إلى الشقة، ولم نجدك هناك، ساورنا القلق، فسألنا **مهران** عنك.

يضحك **علاء** لما يتذكر ذلك، وراح يقلد صوت **مهران** الخشن:

- اذهبا إلى الميدان ستجدونه هناك.. الدكتور **منتصر** أصبح من الشباب إياهم. يقصد الثوار.

قال **علاء** أنهما وقفا مذهولين لحظتها مثل ذهولي لحظة أن رأيتهما. قال بثقة وروح عالية لم أعهدها عليهما أنهما لم ينتظرا طويلا، وأخذا القرار سريعا بالمجيء إلى الميدان.

أضاف **علاء**:

- فتشنا عليك في كل مكان.. لكن كيف نجدك بين كل هؤلاء الناس؟ فكرنا في الخروج من الميدان. لكن أصوات المتظاهرين

وهتافاتهم حركت قلبينا كالسحر يقع عليك دون أن تشعر فيغيرك، وأقسمنا ألا نغادر الميدان إلا حينما يغادرون.

سألت **ممدوح**:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

جال **ممدوح** بنظره في الراقدين حوله، وإلى الذين أخذتهم الإسعاف إلى المشرحة، وقال بنبرة حزينة:

- الذي فعل في كل هؤلاء.

***

حكايات قديمة

تطلب مني **مريم** أن أقص عليها حكايتي.

بدأت أحكي لها أني اكتشفت أن حياتي لا جديد فيها، طفولة بائسة رغم الغنى الفاحش، لا صاحب فيها من النجع، وإخوة وأخوات يكرهونني، وأم طوال الوقت تُعذب وتتعذب، وسواه عمي الذي كان يقف بجانبي.. أستعيد ذكريات الألم والصمت فتدمع عيني.

ركبت الحصان ولكزته في بطنه، انطلق بقوة يضرب بحوافره الطريق الترابي الذي يمتد إلى نهاية النجع، والترعة على جانبه يعوم فيها البط، وفي الناحية الأخرى أشجار الصفصاف والكافور والنخيل تمتد كسور تحيط بحقول أبي التي تمتد حتى يصير الأفق نقطة.. يثور الغبار وراء الحصان فتدفعه الريح، والشمس كدائرة كبيرة حمراء تقارب الغروب، ترتمي في أحضان الجبل.

علَّمني عمي ركوب الخيل، وذكرني بالقول المأثور: **(علِّموا أولادكم الرماية وركوب الخيل)**

في فضاء صغير ترابي بين بيوت النجع، والبعيدة عن بيتنا الكبير ثمة أولاد يلعبون بالكرة، وآخرون قريبون منهم يضربون سباطات البلح الأحمر والأصفر فرُّوا لما سمعوا ضربات سنابك الحصان على الأرض، فرُّوا ظنًّا أن الراكب فوق الحصان أبي أو أحد إخوتي. عادوا بجرأة لمَّا تبيَّنوا أنني الذي أركبه.

شددت اللجام، فوقف الحصان، وحفر التراب بقدميه. ثبتُّ عينيَّ أتفرج على أولئك اللذين يلعبون، وقلبي الصغير يتداح فيه الحزن إلى أبعد مدى. كان يملؤني الشغف لأن أنزل وألعب معهم. كنت أرى الغيرة في عيونهم لما يرونني أشمخ على ظهر الحصان، فتشق الريح وهي تصهل. لا يدرون أني لو أمكن لي أن أتنازل عن ذلك الذي أنا فيه على أن يرضوا أن يشاركوني اللعب معهم لتنازلت.. حاولت أن أقترب منهم، فولُّوا وجوههم عني، وطردوني من بينهم، ورددوا يزفوني بهتافاتهم المعادية:

- اذهب يا ابن سارق الأرض.

عنَّفني أبي لما علم.

في المدرسة أرجع مع الخفير الذي كلَّفه أبي بمرافقتي، وأراهم يجرون وراء بعضهم بمرايلهم فرحين، تتبدل وجوههم كشرًا، أو بصقًا على الأرض لما تقع عيونهم عليّ.

سألت عمي وأمي عن سبب الكره، فنكَّسا رأسيهما صامتين.

ألححت في السؤال على أمي لمَّا كانت تجلس في حجرتها، فأجابت وعيناها شاردتان معلقتان باللمبة المدلاة من السقف:

- لا تحزن يا ولدي. هذا نصيبك.

كنت أرى الحزن في عينيها أمواجًا في خضم البحر الواسع، فتفيض بالدموع تغرق الجفون والخدود. تنتحب بصوت مكتوم، وتكرر على سمعي:

- لا تحزن يا ولدي. هذا نصيبك.

إخوتي أكبر مني بكثير، ولا شاغل لهم إلا الأرض، وإن رأوني، تبرموا ونفخوا في وجهي، فلا أجد إلا صدر أمي أرتمي فيه، أبث إليه همي، فتربت على ظهري، وتمتم بصوت أسمعه:

- أنت صغير على الهَم يا ولدي.

وحده عمي الذي يحرص أن يلاعبني، ويشتري في كل مرة يأتي فيها من سفره لعبة جديدة، أفرح بها لدقائق قبل أن يتكدس بها الدولاب.. وظللت وحيدا ألعب، حتى سئمت اللعب وكففت عنه، فزامت أمي في وجه أبي كقط شرس، وصاحت:

- حتى الولد كرَّهته في اللعب.

دخلت كلية الطب إرضاءً لأمي ولأحقق أمنيتها التي كانت تحلم بها ليل مساء. نعم لم تكن لي رغبة في التعليم، ولكن رجاء أمي جعلني أعافر من أجل أن أفرحها ولو مرة واحدة.

دخلت عليها، وكانت تصلي. جلست على سجادة الصلاة، ورفعت يديها عاليا، تدعو وهي تبكي. نادتني، فجلست في حجرها. أمسكت أصابعي، وأخذت تفرك أطرافها. كنت أحب أن تفعل معي تلك الحركة التي تغمرني بسعادة خفية.. قالت بصوتها الحاني:

- هل تعدني يا **منتصر**؟

نمت في حجرها، ورأيت لمعان الحزن الذي أخذ يضوي في عينيها:

- بماذا أعدك؟

تنهدت، وقالت:

- هل تعدني بأنك ستصبح (دكتور)؟

ثبتُّ عينيَّ في عينيها. كانتا غائرتين كمحارتين مليئتين بالعذاب، فوجدتني أرد بالحب الجارف لها:

- أعدك.

ابتسمت، فتورد الوجه الجميل، وصفت السماء الغائمة بعد ضباب ثقيل قاتم، وقالت:

- ربنا يحفظك يا حبيب قلبي.

لكن الوحدة سهم أصاب قلبك. تتلوى بين الطرق كثعبان ضال. لا صاحب ولا رفيق. تتشتت أفكارك. لا يكفيك تلا من الحزن ولا بحر دموع.

***

اللوحة

أنتظر أمام باب العمارة. اتصلت **مريم** بي قبل قليل، تخبرني أنها اقتربت. يحوم حولي **مهران** كالثعلب يحاول أن يعرف سر وقوفي. لن يظفر بإجابة. يخشى أن يسألني فينال ما يستحقه من توبيخ. لا يمضي وقت طويل حتى تخترق سيارة طويلة وفارهة الشارع ثم تقف بمحاذاتي. يحدِّق **مهران** في السيارة كالمشدوه كأنه لأول مرة يرى في حياته سيارة.

تشير لي **مريم** بالصعود. أصعد وصوت **مهران** يخرق أذني:

- "يا هووو.. أتوبيس هذا أم سيارة؟"

أتمتم في سرِّي أقرأ المعوذتين. تسألني **مريم** ماذا أقول. أفصح لها، فتضحك. تضحك **مريم** أكثر كلما تتذكر أنني أخشى قيادة السيارات وسبب عزوفي عن شرائها.

- لا أتخيل نفسي أقود سيارة. بالتأكيد سأموت بعد أن آخذ في وجهي عشرات الضحايا.

أضيف لها قائلا:

على الدوام كان يطاردني هاجس ما ويداهمني توتر شديد وأرتجف من الخوف لو اقترح أحدهم أمامي الفكرة.

علمني الخوف وأتقن تعليمه لي.

فكَّر عمي أن يشتري واحدة. بترت الفكرة قبل أن تنضج. قلت له قاطعا:

- سيكون موتي داخلها.

هز عمي كتفيه، وقال:

- لا! فلتذهب السيارة إلى الجحيم.

قالت **مريم** لي وهي تهرش بإصبعها في رأسها:

- أمر محير وعجيب. تركب حصانا جامحا وتقوده بأقصى سرعة دون خوف، وتخشى من قيادة سيارة تتحكم وحدك فيها.

أتكئ بيدي على أرض الميدان، وأجيبها:

- لا حيرة في ذلك. الحصان صديقي. بيننا توافق تام. هو أحرص عليّ من نفسي. أمّا السيارة فهي جنون وخوف آخر. أخشاها كما أهاب كل الحياة.

تتوقف **مريم** عن مزيد من المسألة.. تكتفي بقولها:

- بل هو بالفعل أمر محير.

تشير **مريم** للسائق، فيضغط على دوَّاسة السرعة. دعتني ليلة أمس لزيارة أهلها. نظرت إليها مندهشًا. لم تنته المظاهرات بعد، فما الذي تغيَّر. وما سر هذه الدعوة الغريبة. قرأت أفكاري، فأجابتني:

- حفلة صغيرة لعيد ميلاد أخي.

تابعت:

- هي فرصة أن تتعرف على الحقيقة على أسرتي الصغيرة.

لا يمكن أن أرفض طلبا مثل هذا. وإن لم تفارقني الحيرة. حفلة عيد ميلاد نهارا. يبدو أنه بروتوكول جديد.

بينما كنا نجلس قبل ليلتين في الميدان، جلست **مريم** قبالتي تعرِّفني بأسرتها الصغيرة. قالت إن والدها **زاهر فوزي** رجل الأعمال الشهير، وصاحب مصانع الزجاج وقطع غيار السيارات.

مازحتها لحظة أخبرتني بشخصية والدها:

- ألا تخافين على أبيك من المظاهرات؟

صوَّبت عينيها في عيني، وقالت بنبرة جادة، وبثقة المؤمن بقضيته:

- إذا كانت لديه أخطاء، فسأكون أول من يواجهه.

كنت أمازحها بكلامي. يبدو أنها لم تفوِّت الفرصة، فأسقطت كلامها عليّ كالأحجار.

لا مناص من تلقي ضربة جديدة. تسدد مريم لكماتها دون أن تتوقف. تحاصرني في ركن ضيق داخل الحلبة، فأشعر بالندم الشديد لزلة لساني.

تضيف **مريم** بحدة أكثر:

- أنت تعلم أني لم أجيء إلى الميدان إلا من أجل معاناة الناس. لا يمكن أن تحيا وحدك في هذه الدنيا. تتمتع وحدك بخيراتها، وحولك الناس يعانون. يقاتلون من أجل لقمة العيش.

أرى أمي تجلس أمامي. لأول مرة اكتشف أن **لمريم** نفس ملامح وجه أمي. بل هو تطابق شديد لا يمكن أن تفرق بينهما. لا تتوقف **مريم** عن الكلام. تضيف بنبرة حزينة:

- سأحكي لك حكاية رجل غلبان لديه زوجة وستة أولاد وبنتين يعيشون جميعهم في حجرة واحدة وصالة صغيرة.

أتابع **مريم**، وهي تمضي في حكايتها:

- انضممت في الجامعة لمجموعة تهتم بمثل تلك الحالات. نجمع تبرعات وإعانات ممن يملكون. يكون في الأساس لذلك علاقتنا القوية. عملنا أشبه بجمعيات خيرية. نذهب للفقراء والمحتاجين نشتري لهم ما يحتاجون.

أضافت **مريم**:

- حين ذهبت إلى ذلك الرجل، وسألته عن حاجته. أخبرني بصوت ضعيف وعينين دامعتين أن المرض اشتد به، وأيام قليلة سيقابل فيها ربّا كريمًا. تحشرج صوته، وسعل بشدة. خشيت عليه، وطلبت منه أن يستريح. لكنَّه أصرَّ أن يتكلم. كل ما أطلبه من الدنيا ستر البنتين، وترك ما يقووا عليه أولادي على العيش.

توقفت **مريم** عن الكلام، وترقرقت في عينيها الدموع التي أخذت تلمع على خديها كحبات لؤلؤ، قبل أن تحدق في عيني، وتكمل حديثها:

- هل تعرف ماذا طلب منا الرجل؟

أومئ برأسي أنني لا أعرف. يختنق صوتها بالبكاء المكتوم:

- طلب منا وقد نكس وجهه للأرض: إن كان لك أن تساعديني، دليني على من يشتري أجزاءً من جسمي.. لم أستطع أن أسمع بقية كلامه. كائنات دقيقة تسللت إلى داخلي، فأتصلب من الحزن، وسرعان ما يجلده الألم المرعب حتى صار جسدي هشا حتى ظننت أنه سيتكسر كالزجاج. ركضت بعيدًا عنه، لكن قدمي لم تقويا أيضًا على حملي. سقطت على الأرض فاقدة للوعي. واستيقظت في المستشفى وعيون زملائي تحدِّق فيَّ بقلق شديد. خجلت من نفسي لما استعاد عقلي جنون الدنيا.. رجعت إلى الرجل أول ما استعدت عافيتي، لكنني لم أجده.

تضع مريم يديها على وجهها، تبكي وهي تقول: "مات.. مات.. مات".

الموت واحة الفقراء والمتعبين. فسحة للراحة، والبحث عن أمل جديد هناك في مكان غير المكان. وزمان غير الزمان. لا قوة تضرب، ولا بطش يهدد. لا زيف ولا خداع. لن يجدوا أبي. ماتت أمي لتستريح، ومات الرجل أيضا ليستريح. ومتى يستريح أولئك المنتظرون هناك، يحلمون بالأرض، صور تتزاحم في رأسي لمن يقبِّلون الأرض تحت

قدميّ. تخفيف الإيجار ولو بجنيهات قليلة. يتوسلون أبي. أبي عبد للمال والأرض. يدفعهم للموت بطيئًا.. بطيئًا. لعلهم يجدون الراحة.

أحاول أن أهدئ **مريم**. يمر بجوارنا مجموعة شباب، ينظرون إلينا، ثم يستمرون في طريقهم. أقترب من **مريم**. ألاصق جسدها الطري. الدماء تفور في عروقي. أضع رأسها على صدري. لم يعد المد والجزر في البحر هناك. فقط نجوم تلمع في السماء، وطيور ألوانها باهرة تحلق بالقرب. تمسك كل واحدة منها بنجمة، وتدنو مني. يدورون حولنا، ونغم شجي يتسلل إلى أذني. أخرج من حلم يقظتي على صوت **مريم**:

- الدنيا لا تساوي ابتسامة إنسان تقف بجانبه حتى يستعيد حقوقه حتى لو فقدنا من أجل ذلك حياتنا.

تضرب **مريم** ضربتها بكل براعة. تصلني الرسالة كأوضح ما يكون. مرجل يقدح فوق النيران، وآلاف الأيدي تقترب مني لتضعني في قلب المرجل. ثمة أناس آخرون يقتربون. أعرف وجوههم. أعرف بكاءهم. توسلوا لي طويلًا أن أحذوَ حذو جدي **ريان**. أن أفعل قليلا مما فعلته أمي. أرتجف من الخوف. وجه أبي يرعبني. يتهامسون بغضب: "وهل يمكن أن يفعل ذلك؟! أليست الأرض إرثه الحرام؟".. تحملني الأيدي وأسقط في المرجل.. أحلام يقظة وكوابيس يقظة.

تابعت **مريم** تعرفني بأسرتها. أتركها تكمل دون مقاطعة. قالت إن والدتها الدكتورة **سمية عزيز** أستاذة الطب النفسي، أما أخوها **لؤي** فهو في الثانوية العامة.

أخذت السيارة طريقها بين الشوارع المزدحمة، والوجوه الواجمة التي تقابلنا وكأنها تفكر في المستقبل الذي يتأرجح كل ساعة.

الوقت نهارًا تُحتبس فيه الشمس وراء الغيوم الداكنة السواد التي أخذت تتدافع وراء بعضها وتتصادم وكأن بينها ثأرا. تنتهي المعركة بأمطار غزيرة تتساقط كالحجارة. يرتطم المطر بزجاج السيارة فيصدر صوتا قويا كالطرقعة.

أبطأ السائق من سرعة السيارة حتى لا تصطدم بالسيارات الأخرى، أو تنزلق على الطريق الذي أصبح كبرك صغيرة تراكمت فيها الماء، وزاد من الصعوبة الجو الضبابي الذي قلل من الرؤية.

يمضي السائق بصعوبة بين السيارات. أرجع ببصري مرة أخرى وأنظر إلى **مريم**. أرتبك. فتشعر بي. تسألني:

- وجهك أصفر وترتعش.

أخشى أن أقول لها إنني أيضا أهاب المطر. أهاب الريح التي تقلب الرمال كدوامات ترتفع في الهواء. أختبئ منها، ولا أطمئن إلا لما أرى السخرية في عيون إخوتي. ستضحك **مريم** وتسألني:

- ومن أي شيء لا تخاف؟

سأشعر بالخجل ولن أجيبها، لأنني حقًا لا أعرف من أي شيء لا أخاف.

ألم أقل: "علمني أبي الخوف وأتقن تعليمي".

قلت **لمريم**:

- لم أنم طوال الليلة الماضية.

قبل أن تسألني مرة أخرى تظهر أمامنا الفيلا. تشير **مريم** بإصبعها، وتخبرني: "وصلنا".. ألتقط أنفاسي بسعادة: "لن تزيد من أسئلتها الحرجة".

وقفت السيارة أمام بوابة الفيلا، انتظر السائق حتى خرج رجل من كشك خشبي قرب سور الفيلا من الداخل. يبدو أنه حارس الفيلا. يرتدي جلبابًا بنيًا، ولا يضع شيئا فوق رأسه. يسرع ويفتح البوابة.

شقَّت السيارة طريقها مرة أخرى على ممشى بين أشجار **الفيكس** و**الكازورين** وأشجار أخرى لا أعرفها، والورود والأزهار من تحتها من شتى الألوان والأنواع.

أحدِّق فيها منبهرًا، وأخذني تفكيري لبيت أبي الكبير الرابض كقلعة وسط جنينة من كل أشجار الفواكه، وحول سوره الخفراء ببنادقهم يقفون.

وقفت السيارة بجوار حمَّام سباحة، فنزل السائق بسرعة، وفتح لنا الباب. توقف المطر إلا أن آثاره واضحة فوق طين الحديقة المحيطة بالفيلا. نزلت **مريم**، وأمسكت بيدي من يدي، وسارت تتقدمني. أتابعها وعيناي لا تكفان عن التحديق. أتتبع كل أثر في الفيلا من الخارج.

- هل أعجبتك الفيلا؟

تسألني **مريم** وقد لاحظت انبهاري. أصمت لدقيقة، قبل أن أقول:

- صحيح أنا أعيش في بيت كبير كالقصر. لكنه بجانب هذه الفيلا الرائعة يصبح كوخًا صغيرًا.

ابتسمت **مريم**، ولم تعلق على كلامي. تصعد أربعة درجات لامعة كالمرمر أمام الفيلا. دخلت من الباب، وأنا في أثرها أمضي. في الداخل صالة واسعة جدا أمشي فوقها بحذر أرضها كاللُّجة لولا خجلي لكشفت

عن ساقي **كبلقيس**. الصالة مزدحمة بالتماثيل، وثمة لوحات كثيرة أيضًا فوق الجدران.

كان في استقبالنا **زاهر فوزي** وزوجته. قابلني بابتسامة عريضة، ومدَّ يده وصافحني بحرارة، مرحبًّا بي. اكتفيت بابتسامة وإيماءة من رأسي.

رحبَّت بي أيضا الدكتورة **سُميَّة**، وقبضت قبضة خفيفة على كفي. تضع في أصبعها خاتمًا من الماس، يبدو من منظره أنه باهظ الثمن، غمزت لي بطرف عينها، وقالت:

- أهلا بالدكتور **منتصر**.. طبيب الميدان.

ترتدي الدكتورة **سُميَّة** فستانًا قصيرًا بدون أكمام لونه زهري فاتح من قماش الدانتيل. تضع مكياجًا خفيفًا. لا تحتاج إلى مزيد من التدقيق لتكتشف أنها تشبه **مريم** كثيرا.

هممت بأن أرد عليها، سبقني **زاهر فوزي** قائلا:

- هل سنظل واقفين إلى الأبد؟

يتقدم أمامنا بخطوات واثقة، يرتدي ملابس في غاية الأناقة وشبابية (كاجول): بنطلون جينز أزرق و(تشيرت) أسود. يختار مقعدًا وثيرًا

يتوسط المقاعد، ثم يشير إلينا. تجلس الدكتورة **سُميَّة** بجواره. أقبع واقفًا، فيبتسم. يشير إلى مقعد، فأجلس عليه. وتتبعني **مريم** وتجلس بجانبي.

بطرف عيني ألمح مائدة فوقها شموع. لا أعرف بالضبط عددها. بالتأكيد عددها مساو لسنوات عمر **لؤي**. يبدو أنه لا أحد غيري مدعو للحفلة. أشعر بالفخر والسعادة. لم أكن أتخيل أنني أصبحت قريبًا من **مريم** لهذه الدرجة. لم تفصح لي بعد عن مشاعرها. عنيدة ويصعب عليك أن تكتشف ما بداخلها.

أجول ببصري في الصالة الواسعة. يقع نظري على تمثال قريب لامرأة تخرج ثديها تلقمه لطفلها. يلمحني **زاهر فوزي**، فيقول بثقة:

- اشتريته في إحدى رحلاتي من إيطاليا.
- أبي يعشق اقتناء التحف والتماثيل النادرة. يفقد قدرته على التحكم في نفسه إذا وقعت أمام عينيه لوحة نادرة. يدفع نصف ماله دون انتظار.

تقول **مريم** بنبرة ضاحكة، وتضيف:

- ويبدو أنني ورثت عنه عشق اللوحات لكن دون دفع أموال باهظة.

تقاطعها الدكتورة **سمية:**

- ألیس هذا أفضل من المظاهرات؟

یلتفت **زاهر حلمي** نحوي، ویباغتني سائلًا:

- هل یعجبك ما تفعله **مریم**؟

ارتبكت لسؤاله المفاجئ، فرُحتُ أفرك یديَّ قلقًا، ثم رفعت نظري إلى أعلى ناحیة أباجورة كبیرة تتدلى من السقف، ولمبات لا حصر لها تزینها كلآلئ، أحاول إخفاء القلق الظاهر في عیني، وظللت صامتًا لا أعرف بما أرد علیه. أعاد سؤاله بطریقة أخرى لما لاحظ ارتباكي:

- هل أنت مقتنع بما تفعله **مریم** وزملاؤها في المیدان. هل تصدق أنهم سینجحون؟

ألتقط أنفاسي، وأحس بالارتیاح.

علیك أن تسدد ركلتك بكل دقة. المرمى أمامك ولا أحد یعارضك. ستحرز الهدف وتحظى بالانتظار. أستجمع قوتك، وأركض مع العاصفة. لا تخشى المطر ولا الریح.

انبرى بحماسة شدیدة قائلا:

– بالتأكيد سينجحون. مريم وغيرها لا يبحثون عن مجد أو شهرة. قضيتهم العدالة وعيش يليق بكل الناس. المساواة في الحقوق والواجبات.

هلَّلت **مريم**، وصفقت بيديها. أشعر أنها كطير أبيض يرفرف بجناحيه من السعادة.

زادت النشوة في عروقي، وتجتاحني عاصفة هائلة من الثقة، فتابعت موجها حديثي **لزاهر فوزي**:

– وهل للأستاذ **زاهر** رأي آخر؟

هزَّ كتفه، ورد بنبرة متشككة:

– أظن أنهم يحفرون في جبال صخورها كالأحجار الشديدة. يصعب على العاصفة الشديدة أن تحركها. يراوغ النظام الشباب بالصبر حتى يضرب لكمته القاضية.

لم يعُد في القلب رجفة، ولا ضباب يتصاعد أمام عيني يحجب البصر. سعادة **مريم** تضرب في قلبي.

– بالعكس في كل يوم يمر يزداد الشباب ثقة.

قلت **لزاهر** بنبرة قوية.

تحدِّق **مريم** فيَّ بشدة. كأنها تتساءل هل ذلك **منتصر** الذي لم يكن يعرف ماذا تعني مظاهرة. لا يفهم إلا في الأربطة والمشرط. وعقل مشحون بالكره لأبيه. وخوف يجعله في كل خطوة يتعرقل.

في تلك اللحظة نزل الشاب الصغير من على السلالم. يحمل في يديه (جيتار) لا أحتاج **لمريم** لأن تخبرني أنه **لؤي**. يتقدم نحوي، ويصافحني. أصافحه بحرارة قائلا:

- كل عام وأنت بسعادة، وعقبال عيد ميلادك المائة.

يضحك **لؤي**، ويمازحني قائلا:

- أكون عندها ممددا على نقالة.

يجلس إلى جوار **مريم**، ويتابع موجها كلامه إليَّ:

- هل يرضيك ما فعلته بعيد ميلادي؟

يبدو أن شخصية **مريم** تطغى حتى هنا بين أسرتها الصغيرة. أومئ برأسي، فيردف وهو ينظر إليها:

- يرضيك ألَّا يحضر عيد ميلادي إلا أنت.. ليس هذا فقط.. عيد ميلاد في وضح النهار ودون مظاهر للاحتفال.

تنوب عني **مريم** في الإجابة:

- مرة واحدة من نفسك.. ألا يكفيك احتفال العام الماضي.

يستمر الحديث حتى تأتي الخادمة، ترتدي فستانًا رماديًا، وتربط حول وسطها مريلة مطبخ لونها أبيض. تهمس في أذن الدكتورة **سُميَّة**، التي أسرعت قائلة لما وجدت حرارة النقاش احتدمت:

- هيا بنا.

نهضنا نلتف حول مائدة الشموع. نطفئ الشموع، ونهنئ **لؤي** مجددا. نذهب بعد ذلك، ونجلس حول مائدة الطعام. يفاجئني **زاهر فوزي** بسؤال عني. يسألني عن حياتي في النجع، أفكاري وأحلامي. أبي وأرضه الواسعة. تعكَّر مزاجي، وإن حاولت أن أخفي ضيقي. تشعر **مريم** بذلك، فتحاول أن تعيد حديثنا عن الميدان. لم تفلح **مريم** في ذلك ويواصل **زاهر فوزي** كلامه كأنه يثأر لنفسه من عدم تأييده.

أنهي غدائي، وأقوم متعللًا بأنِّي ممن هم قليلون في الأكل. قامت **مريم** ورائي، ولحقت بي تحاول أن تخفف ضيقي المكتوم. قالت:

- لا تحزن من أبي هو لا يقصد.

أهز رأسي متفهما، فتمضي **مريم** في كلامها:

- سأصالحك بمفاجأة.

***

تأخذني **مريم** إلى مرسمها الخاص.. حجرة واسعة خارج الفيلا. حجرة مزينة كل جدرانها باللوحات معظمها قالت **مريم** أنه من رسمها. في ركن بعيد من المرسم، سرير معد للنوم يبدو أنه تستخدمه **مريم** لما يطيل المكوث في المرسم تستريح عليه.

"تعشق **مريم** الرسم، ولا يضاهيه متعة في حياتها إلا مساعدتها للناس، ورسم الفرحة على شفاههم."

هكذا أخبرتني. قالت أيضا:

- وحبًّا في الرسم دخلت كلية الفنون الجميلة، مما شكَّل صراعًا محببًا بيني وأخي من جانب، وبين أمي وأبي من جانب آخر. أبي وأمي يصران على كلية الصيدلة، وأن تبقى موهبة الرسم خارج إطار الدراسة أنميها كيفما أشاء. إصراري كان قويًا على دخول كلية الفنون الجميلة، لا أتخيل نفسي بعيدا عنها. ظل الصراع بيننا محتدما.

تكتفي **مريم** بما قالت.

أعرف بقية ما جرى. انتصرت في صراعها، وفرضت رغبتها بإرادتها القوية. أليست تدعى بالصلبة.

أتنقل بين اللوحات، أبدي إعجابي بالتهليل مرة، وبالتصفير مرات أخرى. تأخذني **مريم** لعالمها الذي تؤمن به. الأحياء الشعبية ووجوه الفقراء. كاميرا في عينيها تلتقط وتخزّن في رأسها وترسم ما تخزنه بكل روعة صورًا لكل مآسي الحياة وآلامها. قليل من أفراحها. وقليل جدا للطبيعة وما فيها. أنبهر أكثر للوحة يركض فيها أسد في غابة يطارد غزالة، والغزالة تجري في اتجاه مغاير بعيدًا عن بقية القطيع، تضحي بنفسها من أجلهم. أخذت لفترة طويلة أحدِّق فيها، أحاول أن أتأكد أنها بالفعل مرسومة، وليست ملتقطة بكاميرا لدقتها. صفقت إعجابًا، وقلت بسعادة:

- الله! أنت بالفعل فنانة رائعة.. لوحات في غاية الروعة، وتحمل أهدافا وأفكارا.

هناك في ركن المرسم لوحة مغطاة، موضوعة على الحامل الخشبي. ببطء أسير نحوها. لا أعرف سر تغطيتها دون بقية اللوحات. هل لم تكتمل بعد؟ أم هناك سر آخر. عليّ أن أعرف. تتحرك شفتا **مريم** كأنَّها تريد أن تقول شيئًا. سبقت يدي كلماتها وأزحت الغطاء.

ينحسر المد قليلًا، وأقف وحيدًا على الشاطئ. تخرج الحورية من البحر بالفستان الأبيض. أمسك بيدي عقدًا كبيرًا من الفل والريحان. أضعه حول رقبتها، وأستدير عائدًا إلى الجزيرة. عشرات البحارة يقفون صفين. نمرُّ بينهما، ويرشوا فوق رؤوسنا الورود والزهور.

ركزت عينيَّ في اللوحة مذهولًا، وورائي **مريم** لا تزال واقفة تنتظر رد فعلي، الذي جاء بشهقة عميقة، أتبعها قائلا: "معقول!"

اللوحة لشاب يحمل حقيبة، ويسير على طريق متعرج بين زروع جافة وأخرى ذابلة، وفوق رأسه من الخلف تطل سماء ضبابية، تبزغ فيها شمس كبيرة أرجوانية اللون، تحلِّق أمامها طيور سود. يرتكز الشاب على قدم، والقدم الثانية ترتفع عن الأرض كأنه يهم في السير. كانت عينا الشاب مركزَّتين نحو نقطة محددة في نهاية الأفق، ليد تخرج من الأرض، كل إصبع منها يخرج منه شعاع أبيض يصعد إلى حافة السماء.

تقدمت **مريم** خطوة واحدة، فلامس كتفها كتفي، فسألتها مندهشا:

- متى رسمتِ هذه اللوحة؟
- منذ أربعة أيام.

زادت الدهشة في عقلي. **مريم** لم تغادر الميدان إلا لليلة أو ليلتين، وفي كل مرة كانت تعود منهكة متعبة من صخب الهتافات الذي لا ينقطع، فكيف لها أن ترسم اللوحة. لا يهمني متى رسمت ولا كيف رسمت. حقيقة واحدة أمام عيني. ذلك الشاب الذي يشبهني. بل هو أنا ذات الشاب. أحلامه وآماله. هواجسه وخوفه. كانت اللوحة كأنها حياتي، بل هي بالفعل حياتي بالعذاب والألم فيها، وتراكمها حتى صارت كضباب يعوق خطواتي. منذ ولدت وأحس أني كطائر مهاجر يظل يبحث عن وطن يأخذه ويرتمي في حضنه، ولكنه يظل يحلِّق ولا يلقى ذلك الوطن. أظل أفتش عن الأمل البازغ الذي يعيد الحياة لنفسي، الذي أشارت إليه أمي في الحلم: "فتِّش عنها".

وفتشت عنها.. هي الآن تقف إلى جواري. أضع يدي في يديها. أستدير فأقف أمامها تماما. يلتصق جسدي بجسدها. وجهي في وجهها. أقبِّلها في خدها. انحرف إلى شفتيها، وأغوص فيهما، يرتج جسدي مع الموج الصاخب.. يطفو ويغوص.. يغوص ويطفو.. حتى هبط إلى قاع اليم.

***

ستغرق في دوامة أحزانك من جديد

لا يمكن أن أصف حالتي الآن. انحسر المد تمامًا. روحي تهيم في آفاق عالية. الكون أصبح ملكًا لي. ظننت أنني سقطت في الهاوية، ومضيت في طريق اللا عودة. ظننت أنني كإناء زجاجي تهشم ويستحيل إصلاحه، وإن فعلوا سيكون إناء آخر بجسد وروح جديدين. أشعر أن الخوف تصاعد من جسدي كبخار، وطيَّره الهواء بعيدًا عني.

لا تزال آثار شفتي **مريم** فوق شفتي حتى أنني خشيت أن أغسلهما. أنفاسها الحارة تسري في أنفي كعطر ندي لم يتم تصنيعه بعد.

ليلة أمس زارتني أمي، وكانت تضحك. وجهها كشمس بيضاء. ضمتني إلى صدرها، وقالت:

- الآن تمضي على الطريق الصحيح.

أزيد في ضمي، فأجد نفسي أضم الهواء. مضت أمي في سرعة خاطفة كما ظهرت في لحظة خاطفة. أول مرة تمضي بهذه السرعة.

ثلاثة أيام كاملة مرت منذ زيارتي لعائلة **مريم** تغيَّر فيها كل شيء. كان أهمها على الإطلاق ما حدث في اليوم التالي للزيارة.

كان الميدان فيه لمن يراه بطائرة هليكوبتر كأنه بحر كبير، تتدافع فيه الأمواج البشرية. **مريم** إلى جانبي تمسك بيدي قلبها يخفق بشدة حتى أنني أسمع ضرباته. لم يكن وحدها التي قلبها يخفق. إلى جانبي من الناحية الأخرى **ممدوح وعلاء** يمسك كل منهما بيد الآخر، ويمسك **علاء** بيدي الأخرى. خفقان قلبيهما يعلو أيضًا. كل من في الميدان قلبه يخفق حتى تحسب أن طبولًا تُقرع.

بين لحظة وأخرى يأتي خبر عابر. نتوجس خيفة حتى نتأكد من صحة الخبر.

ترفع **مريم** رأسها، وتنظر إلى السماء. تقول بصوت عال حتى أسمعها وسط الهدير العالي لأصوات المتظاهرين:

- خائفة جدا يا **منتصر**.

أنظر مثلها إلى السماء، وأقول لها كمغن يشدو بأغنيته:

- لا تخافي.. حتما سننجح.

قبل المغرب بقليل، سرت همهمة عالية في الميدان كصهيل خيول في ساحة الحرب. بعد قليل ترتفع أصوات المكبرات:

- نجحنا.. نجحنا.

وفور أن تردد ذلك، تعانق الجميع، وانطلقت الزغاريد والأغاني، وصار الميدان حفلة كبيرة أخذت فيها الألعاب النارية تُرفع في السماء، وفي لحظة واحدة لو حرص الجميع عليها لما كانت بمثل ذلك الانضباط رددوا النشيد الوطني.

تزايدت الأعداد بعد ذلك بصورة غير معقولة مع توالي الناس من كل الاتجاهات، حتى تكدس الميدان، ولم يصبح فيه موطئ لقدم.

تستمر الاحتفالات حتى الصباح. تنظر **مريم** إليَّ بفرح شديد، ثم تقول بحماسة:

- الآن بدأنا المشوار.

أحدِّق فيها، ولا أعلِّق على كلامها. أكتفي بابتسامة، فهمت **مريم** مغزاها.

***

أدخل إلى المطعم برفقة **مريم**. أشبك أصابع يدي في يدها، ونضحك. بالأمس دعوتها للعشاء. وافقت بشرط أن يكون العشاء سمكًا.

قالت **مريم**:

- أعشق أكل السمك.
- لك ما تريدين.

قلت **لمريم** قبل أن أغلق الهاتف. انتظرت **مريم** في (كافيه) يطل على النهر. كان أشبه بشاطئ مفتوح على النهر بدون حوائط أو جدران. نزلت الدرجات السبع، وتمشَّيت على العشب الأخضر. استنشقت هواء النهر الممزوج برائحة الليل. جلست أمام طاولة قريبة تمامًا من شاطئ النهر، وأخذت أتأمل الوجوه وروّاد (الكافيه). عدت بنظري إلى النهر، وأضواء (الكافيه) تتراقص على مياهه. ثمة مركب للرحلات، تلمع أضواؤه، وأصوات تتهادى بغناء صادح.

أفكر قليلًا في **مريم**. لم ألتق بها إلا لمرة واحدة بعد مغادرة الميدان. يلهبني قلبي لأن أتحدث معها عن مشاعرنا الخاصة.

شفتاي تبحثان عن شفتيها مرة أخرى. صدرها الدافئ، ونبضات قلبها كاللحن العذب يحرّكان وجداني.

لم يطُل بي المكوث في رحلة تفكيري وأحلامي المغرِّدة. جاءت **مريم**، فنهضت مسرعًا دون أن أتناول أي مشروب. رمقني النادل بضيق دون أن ينبس.

ترتدي **مريم** هذه المرة بلوزة بيضاء وبنطلونًا أسود، تضع (روج) قرمزيًا يزيد بهاء شفتيها، تترك شعرها الأشقر ينسدل فوق كتفيها. "مقدمة لا بأس بها." قلت في نفسي.

نجلس أمام طاولة الطعام. أخذت مقعدها قبالتي، فطفقت أحدِّق في عينيها. شبكت يديها، وأسندت ذقنها تحدِّق فيَّ أيضًا دون أن تتكلم. نظرتها توحي كأنها تستجمع حديثًا ستلقي به بعد قليل. هكذا هي نظرتها حين تهم بحديث جاد.

لا تدع لها الفرصة أن تضعك داخل المصيدة. عليك أن تبادر ولا تنتظر. هي كقدر محتوم لو أمسك بك لن تستطيع الإفلات.

أهيئ نفسي لحديث عاشق. أستجمع الكلمات وأتأهب. يأتي النادل على حين غفلة أو على الأحرى دون رغبتي. يدفع بقائمتي طعام على الطاولة ثم يقف منتظرًا بجوارنا كتمثال. أحدِّق في سترته الحمراء، واسم المطعم فوق صدره. بابتسامة يهزّ رأسه. تطلب **مريم** الطعام، وأومئ برأسي أنني سأطلب مثلها. أعيد للنادل ما اتفقنا عليه. يهزّ رأسه مجددًا ويمضي من أمامنا.

لا تنتظر **مريم** هذه المرة، وتبادرني:

- أريد أن أتكلم معك في موضوع.

أزم شفتي، وأبدي لها استعدادي. لم يكن أمامي سوى أن أستمع بعد أن فشلت في أخذ زمام المبادرة.

تمسك بالشوكة وتخبط بها على المنضدة. ثم قالت بهدوء حذر كأنها تتحسس كلامها:

- هل تذكر حكاية الرجل الذي مات؟

يبدو أن أحلامي في كلام عن مشاعرنا تهدَّمت، ويبدو أن **مريم** ستفجِّر الأحزان من جديد.

ضمت شفتيها، ثم قالت:

- هل تتذكر حكاية الرجل الذي حكيت لك عنه سابقا.

أومئ، فتضيف:

- سأحكي لك حكاية ثانية.

أزم شفتيَّ مرة أخرى. تحس **مريم** بغيظي. تربت على يدي. وتقول معتذرة:

- سامحني! هذه آخر مرة سأتحدث معك في هذا الكلام.

أهز رأسي كأني آذن لها تمضي بسرعة كقطار يسير على القضبان:

- ذهبت مع مجموعة الشباب لمصنع صغير لتصنيع الكراسي. سمعنا أن هناك مشكلة كبيرة بين العمال وصاحب المصنع. لمَّا ذهبنا إلى هناك وجدنا العمال يفترشون الأرض، مضربين عن العمل.. سألناهم: ما بكم؟ تقدَّم واحد منهم، وقال لنا: "صاحب المصنع يساومنا ويريد أن يأكل حقوقنا وحقوق أولادنا".. سألناه: "كيف؟".. قال لنا: "صاحب المصنع أجبرنا على التوقيع على شيكات وإيصالات أمانة علي بياض عند استلامنا للعمل. استغل حاجتنا الشديدة. أقسم أنه لن يستخدمها أبدا. قلنا لأنفسنا: ماذا يفعل بها؟ هو يعلم أننا لا نملك إلا ملابسنا. حتى لو استخدمها، بما سينفعه حبسنا. استلمنا العمل، وكنا نحصل على رواتبنا في الميعاد. أجر السهرات الإضافية بانتظام. لكن في الشهور الأخيرة تغيَّر الحال. نقصت رواتبنا، وتحملنا. وفي آخر ثلاثة شهور توقف عن دفع رواتبنا تماما، ولما طالبناه بها، هددنا بإيصالات الأمانة والشيكات. لم نصدق كلامه، وقلنا إنه مجرد تهديد، ولم نصدق إلا بعد أن حكم على ثلاثة منا بالحبس.

شبكت أصابعي، وأحسست أن **مريم** تمهِّد لكلام آخر، فظللت منصتًا لها:

- ذهبنا لصاحب المصنع لنتفاوض معه. أخذنا معنا محاميًا، وهددناه إذا لم يتصالح مع العمال، سنجعل قضيته رأي عام ونفضحه في كل مكان. اعتقد أننا مجموعة من الشباب التافه. طردنا من مكتبه. ولكن جعلنا أيامه سودا. ملأنا صوره في الجرائد. لم تتوقف برامج الفضائيات في الحديث عنه. الملصقات المنددة تزدحم به الشوارع. لم يجد مفرًّا إلا الاتصال بنا، والتوسل إلينا لنتوقف عن الحملة الشرسة ضده مقابل أي حل يرضينا.

التمعت سعادة في عيني **مريم**، قبل أن تنهي كلامها:

- لو رأيت الفرحة في عيون العمال، وسعادتهم الطاغية بانتصارهم على صاحب المصنع، ودعواتهم لنا التي لم تتوقف، لأيقنت أنك ملكت الدنيا.. كل الدنيا.

جاء النادل بالطعام، ووضعه أمامنا على الطاولة. رجعت **مريم** بظهرها إلى الوراء، وأخذت تنظر في وجهي. كانت تنتظرني أن أتكلم، فلما وجدتني لا زلت صامتا، سألتني:

- ما رأيك في هذه الحكاية؟

أمسكت بالشوكة وبدأت في الأكل، ورددت عليها ردًّا مقتضبًا، والأكل في فمي:

- عمل عظيم!

توقفت **مريم** عن الأكل للحظة، وقالت بغضب:

- لم أحك كل هذا لتقول إنه عمل عظيم.

تأكَّدت أنها تحوم حول هدف محدد كعنكبوت يلتف بخيوطه حول صيده، قبل أن ينقض عليه، فقلت لها مراوغا:

- إذن أخبريني ماذا تريدين؟

أبعدت **مريم** الشوكة عن الطبق، وقالت:

- لابد أن ترجع إلى النجع.
- لم؟

تتشابك ملامحها. تبرز القطة مخالبها، وتكشر بغضب عن أنيابها.

- أنت تعرف لِمَ.

أحاول أن أتصنع عدم معرفتي، وأقول:

- صدِّقيني لا أعرف ماذا تريدين بالضبط.

انفعلت، وقالت بنبرة مهددة وقاطعة جعلتني أتوقف عن الأكل:

- أنت تعرف ولكنك تتهرب.. ومع ذلك سأقول لك.

حانت اللحظة التي كنت أنتظرها، وسقطت الفريسة في الشرك، وصوب الصياد سهمه بإتقان.

تابعت:

- لابد أن ترجع للنجع وتواجه أباك ليعيد حقوق الناس المسلوبة.

استدرت ببصري، ونظرت إلى صفحة النيل الفضية، وإحساس ينتابني بالندم أنّي صارحتها، وقصصت عليها حكايتي. قلت لها منكسا رأسي:

- لا أستطيع.

رمت بالسكين من يدها، فسقطت على الطبق، وأحدثت صوتًا عاليًا، سحب وراءه نظرات الجالسين في المطعم، لكن ذلك لم يجعل **مريم** تتراجع في قولها:

- إذن أنت لم تتعلَّم من الميدان شيئا

ثبتُّ نظرة متوترة إلى الطاولة، وخرج صوتي مرتجفا:

- رجوعي للنجع ليس سهلًا، ومواجهة أبي كأنك تعارك الطبيعة.

وقفت **مريم**، وقررت أن تنصرف. أمسكت يدها وطلبت منها أن تجلس.. رفضت وانصرفت وذهبت إلى الحمَّام لتغسل يديها. بقيت لنصف دقيقة منكسًّا رأسي إلى الأرض أفكر كيف أخرج من تلك الورطة الكبيرة التي أسقطتني فيها **مريم**.

رأيتها تخرج من الحمَّام، وتتجه إلى الخارج، أسرعت وراءها بعد أن دفعت الحساب. كانت تُسرع في خطواتها، وتتجه إلى سيارتها. أمسكت يدها، وقلت لها:

- أرجوكِ انتظري.

أولتني نظرة حادة، وقالت بلهجة قاطعة:

- هذه آخر مرة ستراني فيها إن لم تفعل ما طلبته منك.

فاجأتني جملتها، فجمدت مكاني كالمذعور لا أعرف بما أرد عليها. أعطتني **مريم** نظرة أخيرة قبل أن تركب السيارة، وتمضي بعيدًا.

تابعتها بعينيَّ حتى غابت، وعقلي يكاد ينفجر، وصوت محرض داخلي: "ستغرق في دوامة أحزانك من جديد"

فاقة

جاء عام شديد العوز والجوع، وصار الفقر أكبر مما يحتمله الناس. كره الواحد فيهم الجلباب الوحيد الذي يرتديه من غلب الحال، وهمّ من شدة الفاقة أن يقتل أولاده.

لم يكن لأحد من النجع أن يواجه ذلك إلا جدي، وقليل من الأعيان الذين يملكون المال والقمح والشعير.. جاءوا إلى جدي راجين أن يقف إلى جوارهم، وأن يساعدهم في سد جوع أولادهم. رفض جدي، فتضرّعوا إليه، ونسوا الله في السماء، فنزلت عليهم اللعنة أكثر مما يحتملون.

ساومهم جدي القيراط بكيلة من القمح وكيلتين من الشعير، فنكّسوا رءوسهم ورجعوا إلى بيوتهم خائبين. في اليوم التالي عادوا إليه

زاحفين، فصارت كيلة القمح نصف كيلة. استسلم الناس لجدي، وباعوا له الأرض.

كان جدي أكثر إنصافًا من أبي، ترك لهم الأرض يزرعونها مقابل أن يعطوه نصف المحصول.

مات جدي، وجاء أبي، فأخذ الأرض منهم، وأعطاها لمن يريد الزرع بالإيجار.. الأرض كالولد والعرض، وافق الناس رغم إرهاق الدين الذي تراكم يوما بعد يوم حتى صار كالجبل الحاضن للنجع.

حرص أبي أن يزيد من قهر الناس وإذلالهم؛ فرفع الإيجار. تذمر الناس، وبكوا في الليالي المعتمة على حالهم.. ترك معظمهم الأرض وسافر يبحث عن حاله، وبقي القليل منهم يعافر مع أبي إلا أنهم رضخوا وعملوا في الأرض كخدامين.

كان كل يوم يمر يزداد فيه الكره والغل في قلوب النجع، وكنت وحدي أعاني من ذلك لما أحاول الاقتراب منهم، كان إخوتي يعاملون الناس بقسوة، يهينونهم ويضربونهم، والغُلب كافر، يكتم الناس الألم في صدورهم، ولا يستطيعون النطق بكلمة.

على خلاف إخوتي، يتقرَّب بعض أهل النجع من الشيوخ، يتحدثون إليّ، يسرون إليّ بآلامهم. لا يجدون حرجًا في التعبير عن

كرههم الشديد لأبي وإخوتي. يعبِّرون معي عن غضبهم المكتوم بكل حرية. أقف صامتًا لا أعرف بما أرد عليهم كأني فقدت قدرتي على النطق، ولا يدرون أني عاجز تمامًا مثلهم.

تحدثوا عن جدي **ريان** وصموده أمام أبي، وكيف دفع الثمن غاليًا. كانوا يُكثرون الدعاء لأمي، ويصفونها بالمرأة الشجاعة التي تحمَّلت وعانت من أجل كلمة حق في شأنهم.

توسَّلوا لي أن أكلم أبي أن يسمح لهم أن يزرعوا بالإيجار أو مقابل ثلث المحصول. أهزُّ رأسي في كل مرة، وأقول لهم: "إن شاء الله"

مساكين الناس في النجع! يطلبون أقل مما يستحقون ويرتضونه، وأبي غاشم لا يلين رأسه وعناده وصلفه، فلو تحرك الجبل ولان لن يلين أبي.

قال أحد الشباب، من هُم في مثل سني:

- لم لا تكلم عمك، هو يحبك.. وأبوك يسمع كلامه؟

أشعر من كلامه بنبرة سخرية.. رد عليه شاب آخر:

- عمه مثل أبيه.. كلاهما جشع.

أشعر بالغضب، لكن أكتم في صدري، أخشى إن زجرته أو حتى عبَّرت عن غضبي يقتلونني. لن يتورعوا عن ذلك. يمقتني الشباب والصغار في النجع ككرهم لأبي.

لا أصدق كلامهم عن عمي؛ عمي رجل صالح وطيب القلب سيسمع كلامي.. قلت لنفسي: "سأذهب إليه لأثبت كذبهم".

بحثت عن عمي، وجدته بحوش البهائم يغسل جواده الأمهق. ظللت واقفا لفترة أتفرج عليه. يعتني به ويهتم لنظافته ويحرص عليه حتى توطدت بينهما صداقة حسدته مرارا عليها.

رآني أقف بعيد، فناداني. اقتربت ومنه ووقفت في الناحية الأخرى للجواد. كان السؤال يبرز على لساني وسرعان ما يخمد.

سألني عمي لما وجدني صامتا:

- هل هناك شيء يا **منتصر**؟

أصمت كأني أصبت بالخرس. لا أعرف لماذا انعقد لساني، وفقدت قدرتي على النطق. أنهى عمي غسل الجواد، وقبض على كفي، وسار بي خارج الحوش. كان الجو شديد الحرارة يكاد لفحه يحرق الأجساد. فأخذني إلى بيته الخاص.

كان بيتًا صغيرًا من حجرتين وصالة وحمّاما منفصل عن البيت الكبير مبني في جانب الجنينة. كان ذلك البيت نقطة خلاف أخرى بين أبي وعمي، الذي رفض أن يسكن البيت الكبير. لطالما ترجَّى أبي عمي أن يعيش معه، لكن يبدو أن عمي بناه ليهرب فيه من حزن كبير يكتمه عن الناس. لم يحكِ عمي سر ذلك الحزن لأحد حتى أنا. ربما كان ذلك السر أيضا سببًا في عدم زواجه أبدًا.

كان البيت محاطًا بأشجار الصفصاف والكافور العالية التي تظلله، وتخفيه كقلعة داخل حصن.

دخلت البيت معه، وجلسنا على كنبة مواجهة لشاشة تلفاز كبيرة. كان أمام الكنبة منضدة موضوع عليها طبق مملوءاً بالموز والجوافة المقطوفة لتوها من الجنينة، وبجوار الطبق كتاب شعر **لصلاح جاهين** الذي يعشقه عمي.

كان الجو لطيفا، ومنعشًا بخلاف الخارج. لم ينتظر عمي طويلا حتى سألني مجددا:

- أخبرني ماذا تريد.. عيناك تفضحانك.

أخذت نفسًا عميقًا أستجمع به قوتي، قبل أن أدفع بالسؤال دفعًا حتى لا أتراجع:

- أعرف أنك تحبني.. وأعرف أنك لا تحب الظلم...

أتحدث طويلا أقدم لما أريد. يظهر الضيق على وجه عمي.

- قل ماذا تريد دون كل ذلك الكلام

يقول عمي وهو يمسك بثمرة جوافة ويقضمها.

لن أضيف مزيدا من المقدمات. أستجمع شتات نفسي. أنظر إلى الجانب حتى لا أواجه عيني عمي.

- لم لا تطلب من أبي أن يعيد الأرض للناس؟

كأن عمي تفاجأ بسؤالي، فظل لوقت قصير صامتًا يرتِّب أفكاره. ظللت أحدِّق فيه أنتظر إجابته التي ستكون حتمًا بمثل دهائه المعتاد.

بعد فترة الصمت جاء صوته هادئًا منسابًا كماء رقراق:

- لو عرفت أن هناك كنز مخبوءا تحت الأرض في حجرة كل جدرانها من الخرسانة، وليس لها سوى باب واحد من الحديد الصلب، والمفتاح في مكان قريب، لن تجده إلا بعد البحث بهدوء. ماذا تفعل لحظتها؟ هل تأتي بناس وتكسرون في الجدران المستحيلة، أم تبحث بهدوء عن المفتاح حتى تجده؟

أجبته بسرعة:

- بالتأكيد سأبحث عن المفتاح.

تبسَّم عمي، فبانت أسنانه الصفراء من تدخين السجائر والشيشة، وقال سعيدًا بإجابتي:

- هذا الذي أفعله مع أبيك. أبحث عن مفتاح رأسه العنيد حتى لا أصطدم به.

راقت لي إجابته المراوغة الذكية المعتادة لدهائه. لكنها أثبتت كلام الناس أن عمي عند الأرض لا يختلف عن أبي.

اندفعت واقفا، وهممت بالانصراف متضايقا، شدَّني من جلبابي، وقال لي آمرًا:

- اجلس.. أنا لم أنه كلامي.

كان وجهه غير الذي اعتدته، وعيناه تبتعدان عن النظر عني، فقلت لي كلمتي الأخيرة:

- الظلم ظلمات يا عمي.

وذهبت لأمي، أشتكي لها من عمي، وخيبتي فيه. تفاجأت برد فعل أمي. دافعت عنه، وحاولت أن تبرر كلامه.

أستعيد وحدتي، وأسال نفسي:

– هل تناقض أمي نفسها؟ تزأر في وجه أبي وتدافع عن عمي.

كاد عقلي يجن. أكتفي بألا أفكر في الأمر مجددًا. لن أحدث عمي، وليبحث الناس عن حقوقهم. أختفي عن مقابلة الناس في النجع: من يكرهونني أو من يحبونني.

***

ظللت شاردًا طوال الليل أفكر في كلام **مريم**، وتهديدها الصارم. أعرف تمامًا من شخصيتها القوية أنها ستفي بتهديدها إن لم أفعل ما طلبته مني.

أرتكز بيدي على حافة الحوض في الحمام، وأنظر لوجهي مليًّا. لا يمكن أن أترك **مريم** تضيع مني بعد أن وجدتها. هل أترك نفسي للموت مرة أخرى؟ شهور ثقيلة مضت كأحجار الجبل ظللت فيها أبحث عنها في وجوه كل الفتيات عن تلك الفتاة التي تنتشلني من قاع اليأس، ولمَّا أجدها وتكون أقرب الناس إليّ أتركها تمضي. يئست طويلا، وأنعشني الأمل قليلًا، ولمَّا وجدتها تنسحب مني.. لا!

غابت روحي لمَّا ماتت أمي، وعادت لمَّا رأيت **مريم**. كل لحظة إلى جوارها في الميدان كانت كترياق يشفيني من أحزاني رويدًا رويدًا

حتى شُفيت تمامًا. شُفيتُ من إدماني للبيرة والحشيش وهواجس الكوابيس المميتة.

لكن ما تطلبه منِّي **مريم** صعب بل هو المستحيل ذاته. كيف لي أن أرجع إلى النجع وأواجه أبي. دفعت أمي الثمن نفسها لمَّا وقفت في وجه أبي. ردت **مريم** بانبهار لمَّا قصصت عليها ما فعلت:

- امرأة عظيمة بألف رجل.. أنا أشعر بالفخر كلما تكلمت عنها.. يا ليتني قابلتها.

لا تكتفي **مريم**. ورمتني بكلمتها القاتلة:

- يا ليتك تعلَّمت منها.

لا أريد أن أدخل في صراع **مريم** لن ينتهي أو ستنتصر فيه حتمًا. أنا لست أمي، ولم أملك الشجاعة التي كانت عليها. رُبيت على الخوف، حتى جرى في دمائي. لا تعرف **مريم** أبي، وجنونه أمام الأرض حتى عمي الذي يساندني في كل شيء، ويقف دومًا إلى جواري في مسألة الأرض يبدو مستسلمًا، بل أظنُّه مؤيِّدًا لأبي.

أغسل وجهي بالماء، وأخرج من الحمَّام، أجلس في الصالة أواصل تفكيري المنهك. برزت في رأسي صورة **هنية** الخادمة التي وجدوها مطعونة بسكين في صدرها داخل بيتها، وكانت سببًا آخر للجراح التي لم

تلتئم في صدري، وصارت صورتها تطاردني بالعار؛ أنِّي تسببت في موتها دون ذنب جنته. لامني عمي بشدة لما اتهمت أبي بقتلها. أقسمَ لي أنها كاذبة. دار حولي في الشقة، وقال بنبرة حزينة:

- أنا أحزن الناس على قتلك أمك. هل تظن أني كنت سأصمت لو كان أبوك قتلها؟ والله لم تكفيني رقبته.

حدَّقتُ في عمِّي باندهاش. ساند أمي في كل حياتها. لا يسمح لأحد أن يؤذيها، ولولاه لقتلها إخوتي أو نسوة أبي منذ زمن طويل. أرى بينهما نظرات لا أفهمها. ربما تكون عطفا. هكذا أردد في نفسي دائمًا. أفكر في كلام عمي بهدوء. ربما لم يكن محقًّا. بل هو محق. لا يكذب عليّ دائمًا.

- إذن لم قالت ذلك **هنية؟**
- تريد أن تحرِّضك على أبيك. هي تعلم الفجوة بينكما. لابد أن أحدهم وشاها. يقصد أحدًا من النجع.

همس بذلك عمِّي في أذني:

- وهل لو أراد أبوك قتلها سيفعل ذلك أمام عيون هنية.. أنت تعرف أباك إذا أراد فعل شيء لن يغلب.

يضيف عمي، فيشتت أفكاري. أسأل نفسي بحيرة: "هل يمكن أن تفعل ذلك وتضحي بنفسها؟ ربما. ربما. ولكنها فقيرة جدا. وتربت في بيتنا. أمي التي ربتها. لا يمكن أن تكذب. عمي أيضا لن يكذب. الحيرة تقتلني".. أصرخ في نفسي: "لن أرجع".

تظهر **مريم**، ملامحها حادَّة، وكلماتها كالرصاص:

- لن تراني إن لم تفعل.

تدور الرحى، وأنا بين رحاها أدور. عظمي يتفتت كالغلال. وحياتي تتأرجح كالبندول. أجد **مريم**؛ فأجد سعادتي حيث لم أكن. ولمَّا أجدها. تقتلني بكلامها وتطلب مني المستحيل. لِمَ تفعل ذلك؟ وتعلم خوفي الشديد. كرهي لأبي ورهبتي منه. ألا تحبني. أقسمت أنها تحبني. عادت معي بعد العشاء، وقبل أن تفارقني وتصعد إلى سيارتها ضمتني مرة أخرى وعانقتني.. قبَّلتني مجددًا، وغُصنا في قُبلة طويلة. رأيت الحب في عينيها، وسمعته في دقات قلبها. صدرها راحتي وجنتي.

لا.. لا يمكن أن أستعيد حياة التيه والضياع.. لا.. لا يمكن.

***

لا بد أن أعرف.. **لا أن أموت**.

كان لابد أن أعرف.. لابد أن أعرف كيف ماتت أمي. يقين لديّ أن قدمها لم تنزلق ووقعت من على السلم وحدها.

أخذت أحوم في البيت أفتش عن دليل. أصيخ السمع لكل الهمسات، لعلّي أظفر منها بشيء. كانوا كلما حدَّقت في وجوههم ألمح ظلال الخوف والهروب المتجهمة كطفل فعل خطأً، يحاول أن يداريه.

كان أكثرهم خوفًا وهروبًا منّي خادمة أمي **هنية**. أدركت أن بداية الخيط من هنا. عليّ ألَّا أتردد. أضرب فوق الحديد الساخن. أنادي **هنية**. تجيء وتقف أمامي، وتقوم بصوت مكتوم يملؤه الوف:

- نعم! يا سيدي.
- هل تعرفين كيف ماتت أمي يا **هنية**؟!

تتفاجأ **هنية** بسؤالي. ترتعش بشدة كأنها للتو خرجت للشارع في ليلة شديدة البرودة وهي غارقة في الماء. أرى الرعب في عينيها، ولا تتكلم.

أغيِّر من لهجتي وأخفف من حدة كلامي. أيضًا تقف صامتة كأنما أصابها الخرس. أنظر إلى الأرض حتى لا ترى عيني "ربما تجيب".. هكذا أقول في نفسي.

- تكلَّمي

لا تتكلم. يفور الدم في عروقي. أندفع واقفًا، وأقبض بيدي على جلبابها عند الصدر، ألامس نهديها الطافرين لصبية تخرج من الطفولة إلى عالم النضج والإحساس بالأنوثة. أرتعش أنا. لا وقت لهذا. يرتد عقلي ككرة تضرب في حائط. أفلت يدي، وأصرخ فيها:

- تكلمي!

تصطك رجلاها ببعضهما، ولا تنطق. **هنية** خائفة جدًا، وخوفها يزيد من جنوني. لابد أنها تعرف. يقينًا هي تعرف. ألطمها بيدي بقوة على خديها. تصرخ للضربة "يا مصيبتك يا **هنية!**" تولول وتحاول أن تستعطفني.. أشفق عليها. أتذكر حالة البؤس التي تعيش فيها وأهلها، هي صبية لا ذنب لها بما يدور هنا. أسترجع هدوئي. أربت على كتفها.

- هل تتذكرين يا **هنية** كيف كانت تعاملك أمي؟

أسألها بصوت هادئ، أكتسب به ثقتها.

نكَّست رأسها الملفوف بمنديل أزرق مزين بورود صفر، وتتمتم:

- كانت طيبة جدا يا سيدي.
- إذن! يا **هنية** من أجل روح ستك تكلمي.. أخبريني كيف ماتت؟

أقول **لها**، وقد أغلقت باب الحجرة حتى تزداد ثقة، أضيف هامسًا في أذنها:

- لن يعرف أحد أبدا.

تتردد **هنية**. أومئ لها. تتكلم:

- كنت في حجرة ستي أنظفها وأرتبها.

توقفت عن الكلام، ونظرت خلفها تخشى أن يكون أحد يسمعنا. أطمأنها، فتتابع قائلة إنها سمعت أبي يزعق في أمي، ويهددها بالموت إن لم تغلق فمها وتخرس، لكنها واصلت عنادها المعتاد، وحرصها الشديد على إسماع أبي ما لا يحبه، وكررت عليه أنه سرق الأرض، وابتز الناس.

بكت **هنية**، وأخذت تشهق، ثم قالت متلعثمة:

- زعق فيها سيدي بصوت قوي. ارتجفت من صوته. قال لستي "غوري في داهية يا بنت الكلب"

لم أر ما حدث. أظنه دفعها من فوق السلم، فتدحرجت حتى ارتطمت رأسها بالأرض. خرجت أتسحب على قدمي. وجدت سيدي ينزل بسرعة على السلالم، ثم يمسك برأس سيدتي الغارقة في الدماء. أوشكت أن أصرخ، كتمت أنفاسي، خشيت أن يقتلني سيدي، رجعت إلى حجرتك، وانزويت فيها أبكي.

توقفت عن الكلام. أظلمت الدنيا رغم الشباك المفتوح على مصراعيه، والشمس في أوج عطائها. أشرت إليها، فغادرت، وبقيت في الحجرة وحدي ألتقط بقايا أنفاسي، أفكر ماذا أفعل.

الطوفان أمامك، والظلام خلفك. تهاب الظلام. لكن الطوفان مرعب جدا. تقرر أن تتراجع وتندفع بقوة إلى الظلام. تختبئ بين أستاره. لا تراك عيناك. وإن كان خوفك لا يزال يضرب في قلبك حتى تهوي، ويعاندك الطوفان ويأتيك في الظلمة، فيقتلعك ويرمي بك بعيدا.. بعيدا نحو الهاوية.

أقبع في حجرتي، لا أخرج منها أبدًا. يجيء عمي. يطرق الباب بيده القوية حتى أوشك أن ينخلع. أنهض متثاقلا، وأفتح الباب، يسألني عمي:

- لماذا تغلق عليك حجرتك كالنساء؟

أتردد في أن أخبره بما عرفت. ثم أنه لابد أن يعرف. لا تخفى عليه دبّة النملة. لن يخبرني هو ولن أخبره أنا. عليّ أن أراوغهم جميعا أظهر وجها برونزيًا مملوءًا بالزيف والخداع. حتى عمك. حتى عمي. حتى اللحظة التي أستعيد فيها نفسي وأنتقم لأمي.

- لا شيء.

يهزّ عمي رأسه كأنه لا يصدق، لكنه لا يتكلم. يكتفي بأن يأخذني من يدي، ويسير بي إلى المندرة.. أبي يجلس وسط أعيان من البلاد في المندرة. أسلِّم عليهم، وأجلس بعيدًا عنهم لا أعرف ما يقولون.

عقلي مشحون بالتفكير. أرى أبي فيزيد غضبي. سأرتكب حماقة إن بقيت مكاني. أشير بالهاتف لعمي، ثم أنصرف بهدوء.

يمر أسبوع كامل، والجنون يأكل قلبي ورأسي. أرى أبي، أهم أن أواجهه بحماقته الكبرى. أتراجع. عهد قطعته مع **هنية** يقف كالسد المنيع أمامي.

القدر أكبر من عاصفة هائلة. سيأتي قويًا ويأخذني أمامه. يدفعني للمواجهة، ولن أستطيع صده، وحتما سأسقط في الدوامة.

عدت إلى البيت من الخارج لأرتب حقيبتي لأسافر إلى القاهرة. دخلت فوجدت أبي يجلس مع إخوتي في الصالة الكبيرة التي نسميها الواسعة، جالسًا على الأرض، وساندًا ظهره إلى وسادة. كان مجلسًا معتادًا لأبي أشبه بالمجالس العربية. توقفوا عن الكلام لما دخلت، ورموني بنظرات متجهمة لم أبال بها. أخذت طريقي إلى السلم دون أن أرد عليهم السلام.

سمعت صوت أبي يقرعني من خلفي:

- رُد السلام.. يا من يقولون عليك دكتور.

كظمت ضيقي، ووضعت قدمي على الدرجة الأولى، حتى سمعت أخي الأكبر يقول:

- وماذا تنتظرون من تربية النساء؟

فار الدم في عروقي، فاستدرت ورمقته باتساع عينيّ، ورددت عليه بغضب:

- أمي أحسن من أمك.

شتمني قائلا:

- أمك من يا ابن...

لا يمكن أن تبقى ساكتا. الجبن عار، وأمك تحت التراب، ولسانك في فمك. يداك في جنبيك. عليك أن تدافع عنها. عليك أن تزأر.

لم أستطع أن أتمالك نفسي. جريت نحوه ومسكت في رقبته. التف حولي بقية إخوتي، وبدلًا أن يفكوا بيننا تناوبوا الضرب في ظهري، وسط صوت أبي الضائع:

- تتعاركون أمامي يا أولاد الكلاب.

الآن يشتد المطر، والعاصفة الشديدة تضرب بالخارج. يندفع السيل. لن تصده السدود. سيضرب بقوة، فتستلم لضربته، وتتحطم كشجرة ذابلة.

خرج صوتي كنيران ملتهبة:

- ألم يكفيكم قتلها حتى تسبوها؟!

توقفوا عن الضرب لما قلتها، ورفع أبي طرف عصاه في وجهي، وقال غاضبا:

- من هم الذين قتلوها؟

كان الدم يسيل من فمي، فقلت أزيح الثقل عن صدري، وأنفث فيهم فوران الغضب:

- جميعكم وأنت أولهم؟

استند أبي على عصاه، ووقف يشد جسده الطويل، وبدت نظراته المتوترة، والتي تفضحه واضحة. اقترب مني، ثم صفعني على وجهي. زاد طيشان رأسي، فهجت فيه:

- نعم أنت الذي قتلتها. أنت من أسقطتها من فوق السلم.

لم أكد أنطقها حتى رفع العصا عاليًا، وأنزلها على جسدي. كانت تلك الإشارة لإخوتي الذين وجدوها فرصة للانتقام مني، فعاودوا تدافعهم عليَّ كذئاب جائعة حول خروف بائس.

سقطت على الأرض في إعياء شديد، ولم يثنهم ذلك عن ضربي، ولولا أن بعث الله لي عمي الذي جاء من الخارج، والتقطني من بين أيديهم للحقت بأمي.

أوقفني عمي بصعوبة لا أكاد أستطيع الوقوف على قدمي. سار بي بعيدا عنهم، وقبل أن نتحرك بعيدًا، جاء صوت أبي:

- اجمع ملابسك ولا تبق لحظة في البيت.

***

ها أنا أستعيد ذكريات الموت والألم بعد أن اتخذت قرارا بالسفر إلى النجع. أجمع قليلًا من ملابسي داخل حقيبة، وأخرج مترنحًا كالمذبوح من شدة الخوف. قابلت **مهران** في طريق خروجي، الذي قابلني متعجبًا لسفري المفاجئ، وزادت دهشته أكثر لمَّا عرف أني مسافر إلى النجع.

في طريقي إلى المحطة أقابل جموع الناس، وقد التمعت عيونهم بنظرة مغايرة. توجس وقلق من المستقبل يصل إلى حد الغضب لدى قطاع منهم، فرحة وتفاؤل لقطاع آخر ومعظمهم من الشباب.

لم يكن لأحد أن يصدق أن ينجح المتظاهرون في ميدان **ت** في تحقيق مطالبهم. بدت كأنها معجزة فات زمنها ويصعب تحقيقها، أما وقد صارت المعجزة واقعًا فذلك إعجاز أكبر من المعجزة نفسها.

أسمع صوتًا بجانبي يغمغم حانقًا. ألتفت، فأبصر رجلًا طاعنًا في السن يتكئ على عصاه، ويمشي بخطوات ثقيلة مارًّا عبر ميدان **و**، مشيحًا بيده الخالية لمجموعة من الشباب يجلسون على المقهى، ويضحكون. يقف الرجل قبالتهم، ويزرهم بعينيه، ثم يقول رافعًا في وجوههم عصاه:

- غدا تندمون.

يرد عليه شاب شعره طويلًا، ويلف حول كتفه العلم، ويقول له بأدب جم:

- لم يا حاج؟!

يواصل الرجل سيره دون أن يرد عليه، ويكتفي بمواصلة غمغمته مع نفسه لاعنًا الثورة وكلّ الشباب.

قبل خروجي من الشقة متجهًا إلى محطة القطار، اتصلت **بمريم**، وظل هاتفها يرن لمرتين كدت أفقد فيهما الأمل، قبل أن ترد عليَّ. بادرتها أول ما ردت:

- أنا مسافر.

ظلت لفترة صامتة ظننتها تركت الهاتف من يدها، قبل أن يأتيني صوتها:

- صحيح!

أحسست في نبرة صوتها السعادة، فقال متحمسا:

- صحيح!

لم تدم المكالمة بيننا طويلًا، اكتفت **مريم** بدهشتها من تغيير موقفي فجأة. كان بالأمس الموت أحب إليّ من العودة إلى النجع والوقوف مجددًا في وجه أبي. لكن دهشتها تبدلت فرحة طير يحلق في السماء لما قلت لها:

- كله يهون من أجلك أنت.

الآن أركب القطار.. تأخر لأكثر من نصف ساعة.. فكرت خلالها أكثر من مرة أن أتراجع. لكن مع صرخة القطار تحركت كالمخدر مسحوبًا داخله. أبحث عن مقعدي وسط الزحام. ثمة شخص جالس عليه. أستأذنه فيرمقني بحدة غاضبًا. ينهض بتلكؤ، وينفخ في وجهي لما مر من أمامي. لا أبالي به، وأجلس إلى المقعد.

أسندت ظهري، صور الزروع والبيوت تجري أمام عيني كأحصنة في سباق، والقطار يأكل القضبان تحت عجلاته بلا رحمة.

زاحمت رأسي أفكار كثيرة، وبرزت أمامي عشرات الأحداث والوجوه. رأيت وجه عمي مستغيثًا في الكابوس، وإخوتي وأبي واقفين إلى جواره يتفرجون. جاءتني صورة **هنية**، فانتابتني لحظة ضيق، وقد تسببت في قتلها. رأيت أمي تضحك وإلى جوارها **مريم**، فرقت شفتي لابتسامة عابرة.

واصل القطار اندفاعه يشق برأسه الطريق ويرمي وراءه بلادًا، والبحر الأسود للسماء مع الليل الذي جاء سريعًا، والنجوم تلمع وسرعان ما تختفي.. عقلي مشوش، وخوف من المجهول جعلني أزفر بضيق:

- يا ليتني لم أسمع كلامك يا **مريم**.

يمر بجواري صبي يحمل صندوقًا خشبيًا، وينادي ببيع المناديل، رمى في حجري علبة مناديل، لم أهتم بهما. واصل الصبي طريقه في العربة، يقذف بعلب المناديل في حجور الركاب. أغمض عيني، قبل أن أستيقظ على يد الصبي تخطف العلبة من حجري. يغادر الصبي ويأتي من بعده بائع الشاي، وآخر للب. يبدو أن الليلة طويلة وستطول أكثر مع هؤلاء البائعين.

أغمض عينيَّ ولا يأتيني النوم. عقلي مشحون بالأفكار، وصورة أبي تطرد أي بصيص أمل للنوم. أخرج المصحف، وأقرأ سورة الكهف. أصل إلى قوله تعالى﴿ **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾[٣] فيزاحم عيني النوم. أضع المصحف في جيبي، وأذهب في سبات عميق.

أستيقظ على صوت يقطع نومي يردد بإلحاح بليد: محطة **ك**.

---

[٣] الكهف ـ ٨٤

لا أصدق أنني وصلت بهذه السرعة. أحمل حقيبتي، وأخرج من القطار. يستقبلني أحد السائقين ويلح عليّ أن أركب معه. مستسلما أعطيه الحقيبة، وأسير وراءه مخدرًا بالنوم والخوف.

يصعد السائق السيارة، وأصعد وراءه. يضغط دوَّاسة السرعة، ويمضي بالسيارة بعيدًا. لا يمر وقت طويل قبل أن أصل إلى النجع. نزلت من السيارة، ودون أن أقابل أحدا وجدت نفسي أمام البيت.

لا وقت للدهشة؛ فأنت الآن في خضم المعركة. عليك أن تمضي في خطتك بكل دقة، وإلا فالهزيمة مصيرك. حتفك في المعركة قريب، وستكون على حافة النصل في كل خطوة.

لا أطرق الباب، ولكن أجد نفسي داخل البيت الكبير الذي لم تطأه قدمي منذ وفاة أمي. قلبي يدق بعنف، وأفتش عن أبي. يترصدني بتجهم منذ أن دخلت من الباب. يجلس كدأبه في الواسعة، يرتكز بقبضة يده على عصاه، وأبناؤه يحيطون به. لم أر عمي بينهم، فساورني قلق مبهم. اندفعت نحو أبي، وتولدت في قلبي شجاعة، وصوت **مريم** خلفي يحثني أن أتقدم، وأمي بسعادة تضحك.

كأنني في فيلم مشاهده سريعة أجد نفسي أمام أبي. دون تردد أهتف فيه صارخا:

- كفاك ظلم.. عليك أن تعيد حقوق الناس.

رمقني أبي مبهوتًا، ثم هبّ واقفًا، وركز طرف العصا في صدري. حدجني بعينيه الحادتين:

- ماذا تقول؟

أحسست أنني خفيف أرفرف كطائر، وواصلت اندفاعي وحماستي:

- أنت ظالم.. وأرضك كلها حرام.

يقف أبي ويتقدم نحوي، يدفعني بقوة في صدري، فسقطت على الأرض. أمر أبي إخوتي فالتفوا حولي، وكتّفوا يدي. جاءوا بحبل وربطوني فيه. جرُّوني إلى حوش البهائم، وزغاريد زوجات أبي تدوي في البيت. اختفى صوت أمي و**مريم**، ولم يأت عمي. علقوني من رجلي في حبل مدلى من سقف الحوش، وجعلوا رأسي للأسفل كأني خفاش.

صارت الصور حمرا وقاتمة كلون الدم تغمرني.

دفع إخوتي جسدي فأخذت أترنح يمينًا ويسارًا كبندول ساعة. لمحت عمي يدخل من باب الحوش، لكنه كان مستسلمًا على غير عادته، ومنكسًا رأسه إلى الأرض يداري خوف عينيه. عاد صوت **مريم** مرة أخرى يناديني ألا أستسلم.

أمسك أبي رأسي بكفه الكبير كبرتقالة، رأيت وجهه كعفريت عيناه محمرتان تقدحان بالنار، قال لي بسخرية:

- هه.. ما رأيك الآن؟ هل أبوك ظالم يا (فرخ)؟

ضاقت عيني من الألم، وصدى صوت **مريم** يواصل هاتفه ألا أستسلم، صرخت في أبي:

- لن يسكت الناس.. سيثورون ويستعيدون حقوقهم.. من يخاف اليوم لن يخاف غدًا.

انفجر أبي ضاحكًا، فارتج الحوش لضحكته. أمر أخوتي أن يأتوا بجردل مملوء بالماء. أحضروه بسرعة كأنهم ينتظرون الكلمة. وضع أبي رأسي فيه، فشعرت بأنفاسي تختنق. رفع أبي رأسي عن الماء، وكنت في حالة إعياء شديد.

تواردت لرأسي صورة الرجل القديمة الذي رأيته من شرخ باب الحوش، وأبي يقف مستمتعًا لتعذيبه حتى فارق الحياة.

تراءت لي أمي و**مريم** يقتربان حثيثا مني، ويقفان عند رأسي المدلى.

قالت أمي:

- أنا سعيدة جدا بك.. لم تعد تخاف.

تقترب **مريم** وتهمس في أذني:

- أنا فخورة أيضا.

ظلَّ عمي قابعًا مكانه لا يتحرك كأنه يداري فشله هذه المرة في نجدتي.

أمسك أبي رأسه للمرة الثانية، وقهقه عاليا:

- ستموت ولن أفرط في قيراط من أرضي.

في ضيق الجردل والماء أنفاسي تختنق وأحس بخروج روحي، فأصرخ ويضيع صدى صرختي في الماء:

- لا.. لا!

يتواصل صراخي، فأستفيق مذعورًا على وجوه غريبة تحدِّق في. أستعيد قليلا من وعيي؛ فأجد نفسي لم أبارح القطار.

وحده عقلي مضى في كوابيسه بعيدًا يتعجل مواجهة قبل المواجهة.

***

فات الميعاد.. فات

أدفع نفسي في أول سيارة إلى النجع. كان القطار قد وصل قرب الخامسة فجرًا. توجَّست في نفسي خيفة فور أن داست قدماي رصيف المحطة، اندفعت إلى أقرب كمساري، وسألته: "هل هناك قطارات عائدة الأن إلى **ق**؟".. رمقني مستغربًا، وقد رآني لتوي نازلًا من القطار، قبل أن يجيبني:

- بعد خمس ساعات من الآن.

تحركت بآلية، وجلست على مقعد أسمنتي على الرصيف، أغمضت عيني ونكست رأسي إلى الوراء متمتما بهم:

- يا ليتني ما جئت.

لا مناص الآن من الرجوع والنكوص. السيارة تمضي في طريقها بين الزروع. أضع رأسي على المقعد وأغوص في أفكاري. لم أقل لعمي أني راجع، ولا أعرف سر ترددي في إخباره. ربما لأني لم أحسم قراري لآخر لحظة، وحتى أني لم أحسمه إلى الآن.

في آخر مكالمة جرت بيننا كان صوته مرتجفًا، ولما سألته عن سبب ذلك، قال بنبرة يبدو جليًّا فيها التوتر:

- مجرد تعب خفيف.

كان ذلك سببًا آخر لأن أعود. **مريم** تعدني بمفاجأة فور عودتي، وتثق أنني سأنجح. قالت بابتسامة وهي تودعني:

- لا أطلب منك المستحيل.. عليك فقط أن تحاول وإن لم تنجح فيكفيك شرف المحاولة.

لا أعلم مصير هذه المحاولة. ربما لا تعرف **مريم** أن رقبتي ستضيع فيها، ويكفي ما فعلوه بي لما واجهتهم بقتل أمي.

قطع السائق أفكاري:

- هل حضرتك أت من ق؟

أنظر إليه بامتعاض. يعرف تماما أنّي قادم من هناك، ورغم ذلك أجبته:

- نعم!

يندفع للمرة الثانية يسألني:

- هل رأيت بعينيك ما كنا نراه في التلفزيون؟

يمسح شاربه الكث، ويضيف:

- أقصد المظاهرات.

أومئ للسائق دون أن أرد.. تمر السيارة على طريق غير ممهد تحيط به صفوف النخيل من الجانبين، التي أحس أن أعناقها منكسة. تتخبط السيارة وتتقافز فأشعر بأن عظامي تتفتت.. زروع القمح والطماطم تترامى وتمتد إلى ما لا نهاية كسجادة خضراء.

يواصل السائق سخافاته:

- هل كانوا كالنمل كما كنا نراهم؟

أكتفي مرة أخرى بإيماءة.. نقترب رويدا من النجع.. لا أدعه يضربني بمزيد من أسئلته. أخرج الهاتف، وأتصل بعمي لأخبره بقرب وصولي.

"ماذا تقول؟".

يرددها عمي بهلع شديد. يبدو ذلك واضحًا في صوته. أحدد المكان الذي أنا فيه، فيطلب مني أن أنزل فورًا. يتراجع بسرعة. يصمت لثوان قليلة كأنه يفكر.

"تعال من الناحية القبلية للبيت.. من ناحية نجع **غ**."

يقصد عمي أن أدور دورة كاملة **كماجلان** يدور حول القارة الأفريقية ليصل إلى نقطة، يصلها بمسار أقصر عشرات المرات.

"لماذا يريد عمي أن أفعل ذلك؟".. أفكر بقلق.. لم يجب على سؤالي لما سألته. اكتفى بصرامة في صوته:

- افعل ما أقوله دون مناقشة.. ويستحسن بك أن ترجع من حيث أتيت.. ألم تكرر طويلا أنك تكره النجع وكل ما فيه.

كلماته كطلقات رصاص. لأول مرة يبدو حادًّا معي. أفكر لِمَ يفعل ذلك. ومن أي شيء يريدني أن أهرب؟ هل هو قسم أبي بقتلي؟ ألم يقل لي أنه غفر لي ونسى فعلتي الدنيئة؟

سأرمي كلامه هذه المرة وراء ظهري، سأخوض المعركة إلى النهاية.

لكن معركتك خاسرة. تمضي وحيدًا دون جنود أو سلاح. حتمًا ستلقى الهزيمة. عليك أن تستسلم. عليك أن تتراجع. لن تجديك مريم ولا ألف مريم. عليك أن تقرر بسرعة ودون انتظار.

لا.. يتنبه السائق، ويحدِّق في بارتياب. لا أعطيه مزيدًا من المسارات. أحدد إليه المسار الجديد. ينظر لي مرة أخرى ببلادة، ثم يقول:

- ستتضاعف الأجرة إذا.

لا أعلِّق. أكتفي بأن أكرر عليه طريق رأس الرجاء الصالح للوصول إلى بيتنا.

***

يدور السائق حول النجع دورة كاملة، متاهة جديدة، لكن أمضي فيها.

ستهزم خوفك وألمك. ستعرف أنك اليوم لست أنت. ستعرف أنك شخص آخر بنفس الجسد ولكن بتفكير آخر. ستواجه كل الصعاب حتى لو كان حتفك. لكنك في نهاية الطريق ستكتشف أن ما ضاع منك لم يكن له قيمة وأن هذه اللحظة بالذات كافية لأن تعوض كل ما فات.

يبدو لي البيت قريبًا من هذه الزاوية. لم عليّ أن أمضي في دائرة أخرى لأصل.

- توقف.

أقولها للسائق فيرتبك، لكنه يتوقف.. أنزل من السيارة وأحمل حقيبتي.. يدور السائق بسيارته ويمضي بعيدا.

أقابل في طريقي صبيًّا صغيرًا يلعب بعجلة كاوتشوك، يدفعها أمامه في الطريق الترابي بين الزروع. أتساءل: "ما الذي أخرجه في هذا الوقت الباكر؟".. "لا يهم" أقول محدثًا نفسي، وأناديه. ينظر خلفه. يرمقني لحظة ثم يواصل دفعه.

عليّ أن أواصل الطريق.. أقترب من الكوبري الذي يفصل بين النجعين. كان عمي يريدني أن أكمل الدوائر حتى أصل من أبعد نقطة. كأنه يخشى عليّ من شيء لم يفصح به رغم إلحاحي.

أواصل السير، وانتبه للخواء.. لا أحد أمامي سوى بساط آخر وأشجار النخل والصفصاف. ثمة غراب ينعق. أبحث عنه. إنه هناك يحلِّق عاليًا ثم يحطُّ فوق الشجرة.

لا تتشاءم.. لن أتشاءم.. سأمضي رغم الموت المحدق والهزيمة. ولكن في هذه المرة ليس من أجلك يا **مريم**. ولا من أجلك أنت يا أمي. من أجلي أنا وحدي. هذه اللحظة وحدها هي المناسبة لأن أروِّض كل كوابيسي، كل أحزاني وكل الخوف.

أفاجأ في الطريق بسيارة جيب تقترب مني. تشبه تلك التي يستخدمها رجال الجيش. كلما اقتربت يتضح شكي أنها سيارة جيش.

لست في حلم.. إنها الحقيقة، لكن كيف؟ لم يدخل نجعنا سيارة شرطة إلا في زيارات لأبي. ماذا حدث؟

لا وقت للأسئلة.. كل الأسئلة أصبحت بلا معنى، وحين تبلغ المستحيل يصعب كل صعب بلا قيمة.

تقف السيارة بجواري.. يخرج الضابط رأسه، ويشير إليّ. أتحرك على مهل وأمضي إليه. يسألني:

- من أنت؟ وإلى أين في هذا الوقت؟

أزم شفتي، فيحدِّق فيَّ باتساع عينيه. يعيد أسئلته. أنهج بضيق، وأجيبه:

- **منتصر الضبع**. وذاهب إلى بيتي.

أتردد طويلا من ترديد اسم أبي في كل مرة يكون لابد من ذكر اسمه. لكن لا مفر. اسمه كحجر في حلقي. حاجز يمنعني أن أنطقه، وفي كل مرة عليّ أن أجاهد كثيرًا مع نفسي حتى أنطقه.

يفخر الإنسان أن يذكر اسم أبيه، وأنا أخجل لمَّا يأتي اسمه على لساني.. كان الهم يعتليني، وأبكي طفلا:

لِمَ يا أبي تحرمني من عطفك وحبك؟ وزاد الهم في صدري لما كبرت. لم تسمح لنفسك مرة أن تأخذني في حضنك، وتشعرني أني ابنك. دائما أحس أني لقيط تمقته. أكثر من مرة تلفظني من مجلسك كأنه عار عليك.. أتساءل: هل أنا ابنك من لحمك ودمك؟!

كأن هناك ما تعلمونه جميعًا وتخفونه عني، ولولا أني أعرف أمي لقلت إنني ابن حرام؟

يشك الضابط في كلامي، ويسألني مرة أخرى:

هل أنت متأكد؟

أخرج له بطاقتي، يقلِّبها الضابط بين يديه، ويحدِّق فيها صامتًا لفترة، قبل أن يتكلم:

- اركب.

صعدت السيارة، وركبت بين العساكر، وعقلي يتشظى من جنون التفكير والمفاجأة.

***

أحلام ضائعة فوق فوهة بركان

الآن أجد نفسي داخل البيت، ولكن بعد أن تبددت كل أحلامي، تدخل قدمي المتاهة من جديد.

أستعيد ما جرى قبل وقت قصير. صعدت إلى سيارة الجيب، وعقلي يشتعل بحيرة شديدة. تتبدد الحيرة بعد لحظات بعد أن تمر السيارة بين خيام منصوبة كأنني أستعيد ذكريات ميدان **ت**.

لا أحتاج أن أسأل.. الكل يبدو أنه أصبح متيمًا بما جرى في الميدان، واستلهم به قوته الخفية. وجوه أهل النجع متوثبة تنظر إليّ بحدة. قال الضابط:

- لحسن حظك قابلناك وإلا قتلوك.

كان محقًّا في قوله. شعرت بأنفاسهم كاللهيب بمجرد رؤيتي أمر بينهم. أصواتهم كسكاكين تنغرز في جسدي. يحاولون حثيثًا الاقتراب من سيارة الجيب إلا أن بنادق العساكر غير المحايدة ترجعهم.

قالت أمي: الشجاعة لحظة. الخوف لحظة. والفناء لحظة. عليك أن تختار لحظتك في لحظة.

لا يسعني الآن أن أتكلم. أُخرس لساني ولم أنطق لأقول لهم إنني جئت من أجلكم ومن أجل أمانيكم القديمة. سأقف في وجه أبي لأرجع ولو قليلا مما تستحقون. سأكون جدي **ريان** وأمي من تحبونهما.

نظرات الشباب والصغار تسخر مني. لا ننتظر مساعدتك. فات الأوان. قررنا أن نستعيد حقوقنا بأيدينا.

أنكِّس رأسي في السيارة، وتغرق عيني الدموع.

يضمني عمي إلى صدره.. يبكي.. نعم يبكي.. يبعدني عن صدره، ويشير بإصبعه إلى ذلك الممدد على فراشه.

أحملق فيه. محاصرٌ كأسير بين أولاده كأنهم يهابون انتزاعه من بين أيديهم وهو لا يقوى على الحراك.

سقط الأسد في الغابة وتعاركت عليه الغزلان. أقترب بطيئًا كالذي يتهدده الموت. أراه وهو كجريح المعركة مغمض العينين، نائما على مرتبة من القطن، يسند رأسه على وسادة، بالكاد نفسه يخرج من وجهه الشاحب.

جنون إخوتي لا ينتهي. يهمهمون ويتأهبون للانقضاض عليّ. نظرة عمي أخرستهم.

قال عمي:

- اذهب وقبِّل يديه.

أتقدم لخطوتين. يستعيد إخوتي نظراتهم المتوثبة للانقضاض وغضب عارم يطفو على وجوههم.

تطلعت إلى وجه أبى مرة أخرى، فرفع عينيه الذابلتين، وقد خمدت جمرتي النيران فيهما.. كأنه أراد أن يتكلم.. أن يسبني ويطردني مجددًا، لكنه لم يستطع. توقف لسانه عن الكلام، وعجز عن أن ينطق.

تسمَّرت مكاني، ولم أتقدم خطوة أخرى. تأكدت الآن أنه لن يجدي ما جئت من أجله.. لم يكن الراقد أمامي بقوته وجبروته، كان شخصًا آخر منتهيًا تمامًا.

تذكرت أمي في لحظاتها الأخيرة، وفي المستشفى ملتفة بالجبس.

يغمغم أحد إخوتي بغضب:

- هل رأيت من كنت تدافع عنهم؟

أسكت ولا أتكلم.

حكى لي عمي بعد ذلك ما جرى.

- وضعوا جذع النخل أمام السيارة الراكب فيها أبوك. توقف السائق، ففتحوا الأبواب، وأنزلوا أباك بالقوة. تركوا السائق، وقالوا له لا شأن لنا بك.. تكاثروا على أبيك، أوقعوه على الأرض، انهالوا عليه بالعصي والشماريخ. كسَّروا عظامه، وأوشكوا أن يقتلوه لولا أن أخرج السائق المسدس، وضرب طلقتين في الهواء. حملنا السلاح لما رأينا أباك، وخرجنا إليهم. كأنهم كانوا ينتظرون تلك اللحظة، واستعدوا لها. أطلقوا النيران علينا، وقُتل من أقاربك أربعة.. تطاول الكلاب على أسيادهم. هل نسكت لهم يا **منتصر**؟.. قتلنا منهم من قتلنا، ولولا الجيش لخلصنا عليهم.

أول مرة أسمع عمي يتكلم بتلك النبرة. لكن عمي معذور.

سكت عمي قليلا، قبل أن يكمل:

- احتمى الكلاب بالجيش، ونصبوا الخيام.

عاد فحيح إخوتي:

- أبوك في أنفاسه الأخيرة.. هل ستعيد حقه أم ستهرب على **ق** كالنساء؟

سأصمت ولا أتكلم. سأكتفي بأن أجر خيبتي، وأصعد إلى حجرتي في حماية عمي، وقد ضاع الحلم الذي جئت من أجله فوق فوهة بركان غضب الناس وجشع أبي وإخوتي.

لا أحد في الدار يحبني. ولا أعرف لماذا رجعت. **مريم** تصعد الدرجات إلى جواري. لا تتكلم أيضا.

أتأهب لدخول حجرتي. أنحرف يمينا وأدخل حجرة أمي.

***

رسائل مطوية

دخلت حجرة أمي في غيابها. فتحت ضلفة الدولاب، وحاولت أن أصل إلى الرف العلوي.. كنت صغيرًا فلم أصل. أحضرت كرسيًّا، واعتليته.. فتشت في ثيابها. وقعت عيناي على الصندوق المخبأ بين الثياب. حاولت أن أمسكه، فانزلقت قدمي من على الكرسي، ووقعت، ووقع معي الصندوق.

انفتح أول ما ارتطم بالأرض، وتبعثرت محتوياته. كان به ذهب أمي، وخلخال ورثته من أمها. كان من بين المحتويات ورقة قديمة مطوية أطرافها صفر. كانت ساقي تؤلمني، لكني زحفت، وأمسكت بالورقة وفتحتها. ولما هممت بقراءتها، اندفعت أمي التي لم أرها عند دخولها الحجرة تقف عند الباب. اندفعت وخطفت الورقة من يدي، وعنفتني، وقالت لي أن ذلك من فعل اللصوص. حاولت أن أدافع عن نفسي، لكن في النهاية، خفضت رأسي في الأرض واعتذرت لها.

ما قرأته كان كافيًا لأن أعرف بعقلي الصغير أن أمي كانت تبادل شخصًا رسائل الحب.. متى؟ وأين؟ لا أدري. ربما كان ذلك أثناء دراستها في الثانوية العامة، قبل أن تخرج منها ولا تكمل دراستها.

ماتت أمي وماتت معها كل أسرارها وعذابها.

***

الآن أجلس على طرف سرير أمي في حجرتها. أنظر بيأس إلى كل ذكرياتها القديمة: دولابها الخشبي، ومنضدتها الصغيرة. ملابسها وأغطيتها.. أحلامي وأحلامها.

أستعيد كل اللحظات – السعيدة والمُرة–ككتاب مفتوح أقرأ منه. أستعيدها بكل هدوء ووضوح.. ليس أمامي إلا الجلوس. كل ما جئت من أجله تهشَّم كإناء. أبي في فراشه يجابه الموت بصلابة تبددت مثل ظلمة سحقتها أضواء الشمس. في الخارج ناس النجع يزأرون ولولا العساكر والخفراء حول البيت لما أبقوا واحدًا حيًّا.

لا أنسى نظرة الكره في عيونهم. لم يكن يعنيهم في تلك اللحظة جدي **ريان** أو أمي. كانوا كالعميان يتصارعون من أجل انتزاع حياتهم.

أفكر في **مريم**. أفكر ماذا تفعل بعد أن تعلم. هل ستتركني أم تتقبل أمري؟

علاء وممدوح اتصلا بي قبل قليل ليطمئنا عليّ. أخبرتهما بما جرى، ففزعا لأمري، وقرروا أن يجيئا. حسمت أمري معهم، وقلت لهم:

- هذا شأني وعليّ أن أقرر بنفسي ماذا سيكون.

ألتفت إلى الصندوق القديم المسنود بجوار السرير. أزحف إليه بيدي، وعلى مهل أفتحه. أبعثر محتوياته. ألعابي وكتبي الصغيرة. أشياء تخص أمي. أفرغها من الصندوق أشتم فيها الماضي الذي غادرني.

ورقة مجعدة وقديمة تلفت انتباهي. يبدو أنها خطاب أفلت من حريق الذكريات الذي نصبته أمي لكل خطابتها. تمتد يدي المرتعشة إلى الورقة. أفردها أمامي. حبر القلم فوق الورق الأبيض، وكلمة تفتتح بها الخطاب: حبيبي **كمال**.

تسقط الورقة من يدي في الصندوق دون أن أكملها. أكتفي بالغرق في بحر من الظلام، يشتد المد وترتفع الأمواج. تنجرف نحوي لتسحبني إليها.

وقبل أن أستفيق من ذهولي تدوِّي الصرخة في البيت وتتبعها عشرات الصرخات.

***

عليك الآن أن تستعيد وعيك. أن تستمع لطرقات الباب، وتفتح عينيك. عليك أن تحمل سلاحك، فالمعركة احتدمت. عليك أن تقرر أنت في أي جانب. لا يمكن لك أن تكون محايدًا في هذه اللحظة. عليك أن تقرر الآن. عمك يصرخ فيك. وأمك تحاول منعك. لأول مرة كلاهما في وجهة خلاف الآخر. مريم تكتف يديها أمامها وتنتظر قراري.

***

قنا ٢٠١٥